

مشروع 1000 كتاب في الثقافة السودانية

جورج ب. إنجليش

الحملة على دنقلا وسنار

ترجمة : عبد الله حميدة

الحملة على دنقلا وسنار

ترجمة : عبد الله حميدة



يصدر عن هيئة الخرطوم للصحافة والنشر

رئيس مجلس الإدارة
أ.محمد يوسف الدقير
وزير الثقافة والإعلام والسياحة

المدير العام
ورئيس هيئة التحرير
عبد الماجد السر عثمان

مدير إدارة النشر الصحفي
رانيا عبد الكريم حسن

مشرف أول
أماني أبو الريش

مشروع 1000 كتاب في الثقافة السودانية

الهيئة الاستشارية

الرئيس
أ.عبد الله حميدة

الأعضاء
أ.د. محمد غالب عبد الرحمن
د. الصديق عمر الصديق
د. علي صالح كرار
أ. عبد الله آدم خاطر

التصميم
محمد مختار محمد

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان

962.24 اجلش . جورج .ب
س . ح
الحملة على دنقلا وسنار: رحلة في معية إسماعيل باشا 1820/جورج ب . انجلش؛ ترجمة عبد الله حميدة .-ط2.- الخرطوم: هيئة الخرطوم للصحافة والنشر ، 2017م 103 ص؛ 24 سم. (سلسلة 100 كتاب في الثقافة السودانية ؛ 2) ردمك 978-99942-0-431-1 1. السودان - تاريخ - الحكم المصري التركي
أ عبد الله حميدة (مترجم)، ب. العنوان. ج . السلسلة

الناشر: 

السودان - الخرطوم - حي الصفا - شمال تقاطع أوماك
www.newkhartoumsd.com

مقدمة الناشر

لعلَّه من قبيل القواعد الراسخة والثوابت التي لا تنالها زعازع الشك أنه لا سبيل إلى النهوض، لأمة من الأمم وشعب من الشعوب، إلا بالمعرفة والفكر. ففي البدء كانت الكلمة، وفي المنتهى ستكون. وهذه المقدمة تكاد تكون بدهية؛ لا تحتاج إلى برهان، ولا تفتقر إلى دليل، إذ يكفي التأمُّل فيها ليحدث اليقين بها والتصديق بمحتواها. ومن هذا اليقين الراسخ يأتي هذا المشروع بحسبان أن الكتاب هو أوثق مواعين المعرفة، وأرصن رسائلها، والذي لم تزده الثورات المعرفية إلا إثباتاً لأهميته، وترسيخاً لضرورته. كيف لا وهو الحامل الأوكد للمعرفة والمستقر الأعظم للفكر والثقافة، ولولاه لأضحت أحاديث وأنساً يتبدَّد بالتلفُّظ، أو رَهْن أسافير لا يكاد طالب المعرفة يطمئن إليها أو يعتمد عليها.

و(هيئة الخرطوم للصحافة والنشر) في مشروعها هذا: سلسلة المائة كتاب، تحتمل أعباء القيام بصناعة الكتاب، صناعة أساسها المهنية، وحسن الاختيار، وتجويد العمل؛ تصحيحاً وتحريراً وإخراجاً، حتى يستطيع الكتاب السوداني أن يخرج من محليته، وتسهم في إقالته من عثرته والنهوض من كبوته، بجانب جهود آخرين لا نغمطها، أو نغضُّ الطرف عنها، أو نعتبرها كأنْ لم تكن. فهذا المشروع -مع المساعي الأخرى- يتقصَّد إخراج مخطوطات لا تحصى إلى دائرة المطبوع، وتوفير كتب نفدت من المكتبات وصارت من المضنون به على أهله وغير أهله، وتشجيع الشباب والناشئة والذين لم يجدوا إلى النشر سبيلاً، بأن تطبع كتبهم، وتنشر على جمهرة القراء وعموم المتابعين من المثقفين والباحثين، فيصيب الوطن من ذلك كله خير عميم لا يستطاع تعداد منافعه، ولا حصر فوائده.

ولربما كان أقل تلك الفوائد وهاتيك المنافع تعريف القارئ السوداني بأدباء بلده وباحثي وطنه ومفكريه، ثم مد يد التعارف لشعوب جارة لنا، لطالما قالت عنا -في سياق المدح بما يشبه الذم، أو العكس- أننا نقرأ (= اقرأها: نستهلك) ما تكتبه تلك المدينة، وتطبعه أختها. لنقول لهم هاؤم اقرأوا كتابيه. وستنشط تبعاً لذلك القراءة الجادة والاهتمام المعرفي وتقوم للنقد وتمحيص الأفكار سوق.

ولا يقتصر النشر في هذه السلسلة على ضرب من المعارف أو العلوم دون ضروب أخرى، بل تسعى أن توازن بين الشعر والقصة والنقد والفكر والتاريخ وأدب الطفل، بحيث لا يجور مجال على آخر، ولا يتغوّل لون معرفيٌّ على نظيره، فكما أن المعارف تتباين، فكذلك رغائب القارئين وأهواء المتابعين، فأوجب الاحتياط لهذا الأمر وتوزيع النشر بالنصفة والقسطاس، حتى يجد كلٌّ بغيته، وينال كلُّ طالب نصيبٌ من المعرفة والأدب والثقافة.

المحتويات

الإهداء	٩
كلمة المترجم	١١
المقدمة	١٥
الفصل الأول: من (وادي حلفا) إلى (دنقلا)	٢١
الفصل الثاني: من (دنقلا) إلى (بربر)	٥٥
الفصل الثالث: من (بربر) إلى (شندي)	٩١
الفصل الرابع: من (شندي) إلى (الحلفاية)	٩٩
الفصل الخامس: من (الحلفاية) إلى (سنار)	١٠٥
الفصل السادس: في ربوع (سنار)	١١٥
الفصل السابع: العودة إلى مصر	١٣٣

الإهداء

إلى قنصل عام صاحب الجلالة البريطانية
في مصر (هنري صولت)، المحترم،
صديقي الأبوي في بلاد الغربة.
أهدي هذا العمل تقديراً وإعزازاً.

كلمة المترجم

العمل الذي بين يدي القارئ الكريم ظل حبيس الأضابير طوال مائة وثمانين عاماً و لم تمتد إليه يد الترجمة الكاملة منذ عام ١٨٢٢م بإستثناء نصوص قليلة جاءت في سياق إقتباسات تضمنتها دراسات قليلة على فترات متباعدة ولأغراض أكاديمية محدودة.

وقد حفزني نفر كريم من الأكاديميين السودانيين على ترجمة النص الكامل لهذا العمل بعد ظهور ترجمتي لكتاب (هجرة النوبيين) للإداري السوداني حسن دفع الله وعلى رأس هؤلاء المرحوم البروفيسور محمد إبراهيم أبو سليم والأستاذ عوض خليفة موسى الذي أعارني نسخة مصورة من أصل الكتاب فبدأت الترجمة منذ سنوات ثم إنقطعت عنها لإنشغالي بقضايا أخرى حتى غيض الله لي أن أتممها هذا العام، وقد شجعني علي المضي في تجهيزه للنشر الصديق نوري الجراح: المشرف على سلسلة (إرتياد الآفاق) التي تهتم بأدب الرحلات في العالمين العربي والإسلامي على وجه الخصوص.

وبعد أن فرغت من كل ذلك، رأيت أن إكتمال هذا العمل يحتاج إلى توطئة لا غنى عنها لمن يتوق إلى معرفة بعض الخلفيات الضرورية اللصيقة .بمحتواه فأقول:

إن المؤلف قد بذل جهداً للتعريف بسودان الربع الأول من القرن

التاسع عشر الميلادي، أرضاً وسكاناً وبيئة وآثاراً، وأسهب – إلى حد ما – في شرح عادات وأخلاق وصفات السودانيين في ذلك الزمان، وقد تجاوز في جزء من ذلك التعريف الحد المعقول من الحصافة إلى إدعاءات لا يسندها منطق ولا يقبلها التاريخ المكتوب، مثل تجنيه على أهل منطقة بربر ببهتان منكر لا أجد في نفسي ميلاً لتصديقه، وقد اقتضى ذلك أن أهمل ترجمة هذا الجزء من الكتاب على محدودية مادته لأنه يشبه (القشة التي تقصم ظهر البعير) خاصة وقد أصبحت (اليوميات) التي سجلها (انجلش) مرجعاً ينقل من كتاب الغرب وأكاديميوه بلا تحفظ وربما دون أن يتجشموا معاناة البحث العلمي الدقيق، وسيجد القارئ أمثلة أخرى لإدعاءات أقل شأناً ولكنها تندرج في ذات المنحى المجانب للحقيقة. . المجافي للدقة.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من مآخذ في منهج المؤلف أنه جعل الظنون والأوهام حقائق ومسلمات، فهو يورد بعض المعلومات المغلوطة عن منابع (النيل) وعن صلة (النيل) بنهر (النيجر) وهي معلومات أثبتت الأيام لاحقاً أنها تفتقر إلى الصحة. .

يضاف إلى كل ذلك أن المؤلف قد وقع في ما يقع فيه كتاب الفرنجة من إضطراب شديد في الضبط اللفظي الصحيح لأسماء الأنهار والمواقع الجغرافية والأعلام، وسيجد القارئ الكريم أنني قد بذلت جهداً واسعاً لضبط ما رأيت إضطرابه من تلك الألفاظ.

غير أنني – رغم هذه التحفظات الهامة – إعتراف بأنني قد إستمتعت

بلغة الكاتب وبراعته في تسجيل يومياته وحرصه على حشد التفاصيل الصغيرة وأحمد له أنه قد جعل لنفسه خط رجعة حين أقر واعتراف بضعفه البشري وأعلن حرفياً في مستهل مؤلفه أنه (يخاطر بحمل تهمة القصور ولا يقبل لنفسه الوقوع في الخطأ الصراح).

بقى أن أقول أن تبويب هذا العمل في شكل فصول هو من بنات أفكاري وقد اقتضاه حرصي على تمكين القارئ من الوصول إلى المعلومات بأسلوب يسهل عليه متابعة مسير الحملة ويتقرب غليه فهم تفاصيلها الدقيقة.

وللقارئ - بعد كل ذلك - أن يحكم لهذا العمل أوي حكم عليه بحيثيات النص الذي هو الآن بين يديه.

عبد الله حميدة

الخرطوم ٢٠٠٦/٥/١٥

المقدمة

ذاع صيت محمد علي باشا [١] - الذي أخضع مصر والحجاز وأخمد ما عم فيها من فوضى- في أنحاء العالم المتمدين. فمصر التي كانت - موطن الشقاق ومركز الفوضى- نعمت تحت إدارته بالسلام والرفاهية وإشتهرت في أوساط التجار والمسافرين بالأمن والطمأنينة وغدت ثروتها تنمو وتتحسن [٢]عاماً بعد عام.

إهتم محمد علي - على وجه الخصوص - بإحياء وتوسيع تجارة مصر مع دول الجوار. تلك التجارة التي جعلت منها - يوماً ما - أغنى وأزهر دول العالم القديم.

(١) ولد محمد علي باشا: الوالي الحالي لمصر لوالدين تركيين في (بورتوكفاللو) قرب (سالونيك) بمقدونيا. وجاء إلى مصر عند خروج الفرنسيين منها برتبة (بمباشي) ضمن قوات (الإنكشارية). ونسبة لملكاته وشجاعته - التي اتضحت إبان حرب الأتراك ضد المماليك في مصر - فقد حاز على رضا وثقة الجيش التركي فانتخبه الجنود قائداً لهم. وصادق السلطان علي اختيارهم واصدر (فرمانا) عينه بموجبه والياً على مصر والحجاز. وهو اليوم في الستين من العمر وينبئ تكوينه الجسماني القوي بعمر مديد كما أن ملكاته البينة ستكون - بلا شك - عوناً له لحيازة مجد عظيم.

(٢) تم - على سبيل المثال - شق طريق ملاحي عبر صخور الشلال الأول. وفي الوقت الحاضر - وبأمر الباشا - يسير العمل في حفر قناة تجتاز أصعب معابر الشلال الثاني. كما قام الباشا بإكمال حفر قناة عميقة تصل النيل بالإسكندرية جنبت التجار مخاطر بوغاز (رشيد). وتم فتح الطريق الذي يربط مصر بالهند مما جدد العلاقات المثمرة بين هذين القطرين. كذلك قامت منشآت ضخمة لمركبات الصوديوم وصناعة البارود، وتم إنشاء مصانع للمدافع والأسلحة الخفيفة والحرير والقطن والسكر - على يدي الوالي - تعمل تحت إشراف الأوربيين. واستجلب الوالي من أوربا مكتبة مختارة بعناية في الفنون العسكرية والجغرافيا والتاريخ والفلك والطب والآداب والفنون الجميلة ملحقة بقصر إسماعيل باشا. وفتح مدرسة على نفقته لتعليم أبناء المسلمين اللغة الإيطالية وعلوم الفرنجة. ثم أضيفت - مؤخراً - لهذه المنشآت مطبعة للكتب باللغات التركية والعربية والفارسية، ولطباعة صحيفة أسبوعية باللغتين العربية والإيطالية. وكان يتولى مسئولية الإشراف على المكتبة والمطبعة: (عثمان نور الدين أفندي) وهو شاب تركي صاحب موهبة فذة وذو معرفة جيدة بالآداب الأوربية اكتسبها من خلال إقامته الطويلة في أوربا بأمر الوالي، وهو يقوم - حالياً - بترجمة بعض الأعمال المتعلقة بالأساليب والنظم إلى اللغة التركية لفائدة أبناء وطنه. ويقال أن الوالي - خلال العام الماضي - قد جند ستين ألفاً من الرجال - إلزاماً - للتدريب على النظم العسكرية الأوربية التي أثبتوا استيعابهم الجيد لها مما يبشر بأنهم سيكونون قوة مهابة.

ولسنوات عديدة خلت، عانت التجارة الداخلية - لهذا القطر المحظوظ - من الإضطرابات والنزاعات التي كانت بلاد أعالي النيل فريسة لها، فقد شكل ملوك الشايقية [1] حكومات مستقلة قوامها قطاع الطرق الذين ينهبون كل المناطق والقوافل التي تصل إليها إيديهم بلا رحمة أو كابح. وفي ذات الوقت أثرت الحروب الأهلية التي عصفت .بمملكة سنار ذات السلطان العريق - خلال الثمانية عشر عاماً الأخيرة - على وتيرة التجارة. . فحجبت ما كانت تجنيه مصر منها من مزايا عظيمة. نتيجة لذلك صمم معالي الوالي - باعتبار أن أنجع الوسائل لإخماد تلك الفوضى - أن يخضع تلك البلاد لسلطانه. فوضع أربعة آلاف من الجنود تحت إمرة إسماعيل باشا [2] - أصغر أبنائه - وأمره بإخضاع كل بلاد النيل الواقعة ما بين الشلال الثاني ومملكة سنار.

وبتأثير من توصية سعادة (هنري صولت) القنصل العام لصاحب الجلالة البريطانية في مصر، أمرني الوالي بمرافقة هذه الحملة برتبة (طبجي باشي) أي: (لواء مدفعية) ووجهني بتقديم مقترحات عملية بما يعن لي في هذا المضمار لإسماعيل باشا الذي يجوز له الأخذ بها أو رفضها وفقاً لما يرى.

لقد حققت هذه الحملة الاستثنائية نجاحاً باهراً. فقد تم فتح بلاد شاسعة

(١) يوردها المؤلف هكذا: شاقية Shageia - المترجم.

(٢) يبلغ (إسماعيل باشا) حوالي الخامسة والعشرين من العمر. ولمحمد علي ثلاثة من الأبناء وهم (طوسون باشا) الذي كان أكبرهم وقد توفي حال رجوعه من الحملة ضد الوهابيين في الحجاز) و(إبراهيم باشا) الذي هو الآن في الثلاثين من العمر والذي أحرز انتصارات باهرة على الوهابيين، ثم (إسماعيل): فاتح إثيوبيا. (يعني سودان القرن التاسع عشر الميلادي) - المترجم.

خصبة – استعصت في عهد الملكة (الكنداكة) على جيوش روما – بما لم يكلفنا سوى نحو مائتين من أرواح الجنود.

يرجع السبب الأساسي لهذا النجاح الاستثنائي – بذلك الثمن الزهيد –إلى إنسانية ونزاهة إسماعيل باشا تجاه البلاد التي استسلمت له بغير قتال. فقد تم تأمين أشخاص وممتلكات الذين لم يبدوا مقاومة وصدرت عقوبات صارمة على قليل من الجنود الذين خرقوا هذه القاعدة. وانعكست آثار هذا السلوك بصورة جلية وجيدة على أهل تلك البلاد. فقد رأى الجميع أن الذين فضلوا السلام قبل الحرب نالوه بلا قتال وأن الذين انحازوا إلى الحرب قبل السلام خسروا فرصة الأمان وكان الثمن أهوالاً من الخراب والدمار.

إن نزع سلاح قطاع الطرق الذين عاثوا في الأرض فساداً دون أن تمتد إليهم – من قبل – يد العقاب، وشيوع الهدوء والاستقرار والأمان الذي تمتع به الأهالي والمسافرون وخضوع العديد من الممالك [1] المحلية لسلطان والي مصر، لم تكن وحدها هي حصيلة هذه الحملة التي جلبت للوالي العظمة والفخار. فقد فتحت الحملة الطريق أمام البعوث الجغرافية والأثرية لاستكشاف نهر وربوع ذات أهمية بالغة لم تكن حتى اليوم معروفة للعالم المتحضر على نحو كاف. فالنيل الذي سرنا على ضفتيه

---

(١) يحددها المؤلف بما يلي: سكوت(ويوردها هكذا Succoot:) والمحس (ويوردها هكذا: Machass) ودنقلا والشايقية والمناصير والرباطاب (يوردها هكذا: Rabutat). وبربر وشندي والحلفاية وممالك سنار ودارفور وكردفان. وهذه كلها خاضعة الآن لغازي مصر والحجاز. والممالك الإحدى عشرة المذكورة أولاً تقع على النيل وتجيئ بالتتابع بالنسبة للمسافر الآتي من مصر. أما كردفان ودارفور فتقعان غرب النيل.

مئات الأميال، هو أشهر أنهار الدنيا من حيث المنابع المجهولة وغموض المجرى. لكن الحملة – حالياً – أزالت غموض المجرى ويحتمل أن يتم الكشف عن المنابع المجهولة لهذا النهر قبل رجوع إسماعيل باشا إلى مصر. أما البلاد التي اجتزناها فقد خلدها التاريخ وتناولها الشعر باعتبارها موطناً لأمم شهيرة وعريقة أقامت وأسقطت إمبراطوريات عاتية، وكانت مهداً للديانات والمعارف والفنون والحضارات التي تمتد جذورها إلى فجر التاريخ، وتفوقت على أمم سابقة طرقت – من قبلها – دروباً حتمية في مسار الارتقاء الإنساني [١].

إن هذه البلاد التي تنتسب إلى (كوش) و(سبأ) والتي روعتها مخيمات العثمانيين [٢]، قد استرجعت في أذهاننا صور القوة والعظمة التي اتصف بها سادتها القدماء. كما أن آثار المدن (التي كانت يوما ما تعج بالسكان) والمعابد الخربة ذات الماضي المهيب، والتماثيل الهائلة (المطروحة أرضا بفعل الزمان والواقع) والتي كان الناس يعبدون، وما يزيد عن مائة من الأهرامات التي ضمت في جوفها أجساد ملوك وغزاة عظام أصبحوا نسيا منسيا. كل ذلك أوقف مسيرة قواتنا لفترة من الوقت ولفت انتباه الفرنجة [٣] الذين صحبوا الجيش في رعاية وحماية الباشا.

---

(١) يحتفي التاريخ القديم بعراقة وحكمة وعلوم (الأثيوبيين الصامدين) الذين كانت تقيم معهم الآلهة (طبقاً لأساطير هوميروس) الولائم. وإذا كان الأمر كذلك فإن تلك الآلهة – في الزمان القديم- لابد أنها كانت تستمتع بالترحال إلى هذه البلاد أكثر مما استمتعنا نحن، وإلا لما ترددت عليها أكثر من مرة كما تروي تلك الأساطير.

(٢) يقصد الجيش الغازي – المترجم.

(٣) السيد (فرديناني) الإيطالي والسيد: (كايو) و (كونستانت) الذين بعثهما صاحب الجلالة المسيحية في صحبة حملتنا إلى سنار. وعندما فارقتهما كانا بصحة جيدة، وإني مدين للسيدين (كايو) و(كونستانت) – على وجه الخصوص – نسبة للمودة والصداقة التي طوقا بها عنقي ويسعدني أن أقابلها بالعرفان.

إن تلك الآثار – التي امتدت بها الأيام طويلاً والتي لفتت أنظار الباحثين من رجال الفكر – ستربط اسميْ: (محمد علي) وابنه (إسماعيل) بتاريخ ومعالم هذه البلاد الشهيرة (والتي طالت بها العزلة) على نحو يخلد ذكراهما ويوثقها.

سيجد القارئ أنني – أحياناً – خلال تسجيل هذه اليوميات، قد ضمنتها أحداث أيام عديدة في صورة سرد قصصي خصوصاً عندما سجلت انطباعاتي حول الشلال الثاني. وحينها كانت تداهمني حالات من الرمد الحاد لازمني خمسة عشر شهراً أعجزتني – لبعض الوقت – عن الكتابة. ولذلك فإنني لم أسجل إلا ما رأت عيناي وإلا ما استوثقت من حقيقته، فجاء عملي مختصرا. وفضلت أن أخاطر بحمل تهمة القصور من أن أقع في الخطأ الصراح.

لقد شرعت في تسجيل يومياتي بوادي حلفا – عند الطرف الأسفل من الشلال الثاني – لأن الحملة يمكن أن يقال عنها أنها انطلقت من هذا المكان، خاصة وأن النيل وضفتيه أسفل (وادي حلفا) كان مطروقاً بواسطة الأوربيين وموصوفاً – غالباً – في عديد من المطبوعات المعروفة لدى العالم المطلع.

إن المواقع الجغرافية لمعظم أماكن أعالي النيل تم تحديدها بمعرفة السيد (كونستانت) الذي استعان بطاقم من المعدات الممتازة وبعناية فائقة وبعزيمة لا تكل، وإني على ذلك من الشاهدين. وستظل ملاحظاته – دون شك – ذخراً قيما لعلم الجغرافيا. أما (فردناني) فقد استفاد من الحماية التي وفرتها له الحملة للتوغل في أعالي النيل. وتوفي في سنار بحمى سببت له جنوناً استدعى تقييده بالجنازير.

الفصل الأول

من (وادي حلفا)
إلى (دنقلا)

الفصل الأول

من (وادي حلفا) إلى(دنقلا)

وصلت إلى المعسكر بوادي حلفا – على الشلال الثاني – في السادس عشر من ذي الحجة عام ١٢٣٥ للهجرة [١] حيث وجدت حوالي أربعة آلاف من الجنود يشكلون كتائب من الفرسان والمشاة ورجال المدفعية الأتراك وعدداً مقدراً من فرسان البدو والمشاة المغاربة [٢] إلى جانب مائة وعشرين مركباً نهرياً ضخماً محملاً بالمؤن والذخائر كانت مهمته أن يتابع مسيرة الجيش المتجه إلى بلاد أعالي النيل.

وفي السابع عشر من الشهر، قدمت نفسي لسعادة (إسماعيل باشا) الذي استقبلني بإطراء وخلع عليَّ حلة من ثيابه. وعندما سألت سعادته إن كانت له أي أوامر لشخصي، أجاب بأنه – في الوقت الحاضر – مشغول بتحميل وتوجيه المراكب التي تنقل موؤن الجيش، لكنه عندما يفرغ من هذه المهمة سيستدعيني لتلقي أوامره.

---

(١) يقابل هذا التاريخ: أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر ١٨٢٠م. وفي هذا الموسم يكون منسوب النيل في أعلى ارتفاعه. وتتكون السنة – في بلاد المشرق – من اثني عشر شهرا قمرياً وهي محرم وصفر (يوردها Safa)، وربيع الأول وربيع الآخر وجمادي الأولى (يوردها: Jamisalawal) وجمادي الآخر (يوردها: Jamisalachar) ورجب وشعبان ورمضان (يوردها:Ramazan)، وشوال وذو القعدة وذو الحجة.

وقد التزمت بالتاريخ الهجري – عبر سطور هذا العمل المتواضع – لتسهيل ترجمته إلى التركية والعربية.

(٢) يتكون عتاد هذه القوة من: عشر قطع من مدفعية الميدان، ومدفع مورتر عيار ٨ بوصات ومدفعي هاوزر. وهذا العتاد يديره مائة وعشرون (مدفعجياً). أما القوة فتتكون من ثلاثمائة جندي من المشاة الأتراك وسبعمائة من المشاة المغاربة، ثم جنود من الفرسان الأتراك والبدو، وفيلق من العبابدة راكبي الجمال الذين يتسلحون بالرماح والسيوف والدروع، وقليل من رماة البنادق.

ألهيت نفسي - خلال هذه الاستراحة - بملاحظة تكوين بنية الجيش. فرأيت الجنود ورؤساءهم منهمكين جيداً في القيام بواجباتهم طاعة لقيادة ضباطهم الشباب وبوازع خشيتهم من(محمد علي). وكانوا على أهبة الاستعداد لتنفيذ أي أوامر تصدر إليهم ومشغولين للغاية بتدخين غلايينهم في أوقات الفراغ.

إن الشبه بين معسكر الجنود الأوربي والآخر التركي كالشبه بين النهر الذي يجري في هضاب (مقدونيا) وذلك الذي ينحدر من أعالي (ولز). يقول الكابتن (فلولن): «إنك تجد في كليهما سمك السالمون». فالجنود الأتراك يرتدون حللا عسكرية زاهية ويبدون مدججين بالسلاح. وكل حصان يحمل جندياً ومعه ذخيرته وسيفه وزوجين من المسدسات: زوج مثبت على انحناءة السرج والآخر يبرز من الحزام. ويحمل المشاة - بجانب بنادقهم الطويلة - مسدسات وسيوف قصيرة مصنوعة من أفضل أنواع الحديد الصلب. وكل هذه الأسلحة موشاة بالفضة.

والجيش التركي يتكون من جنود نظاميين يشكلون فيالق وأفواج وسرايا لكنه - من حيث الكفاءة القتالية - لا يعرف سوى أساليب الحرب الأولية. وينصب معسكر الجيش التركي بطريقة شديدة العشوائية: فالقائد يقوم فقط بتحديد مواقع خيام رؤساء الفيالق التي يتكون منها الجيش، وتنتشر خيام كل فيلق حول خيمة رئيسه بالطريقة التي تحلو للجنود. ولا يوجد شكل منظم للخيام- في معسكرنا- إلا في موقع رجال المدفعية

ومقر خيمة الباشا. فرجال المدفعية يقيمون خيامهم في صفوف خلف المدافع. ويقوم الضباط العظام الذين يشرفون على خدمة الباشا بنصب خيامهم إلى يمين ويسار خيمته، بينما ينصب حرسه الشخصي المكون من المماليك خيامهم- في شكل نصف دائرة- حول مؤخرة خيمة الباشا التي تحاكي أفخم القصور العسكرية. وهي تتكون من ثلاثة أجزاء أولها: جناح مستدير مغلق ذو حجم مقدر، مبهرج الألوان وتعلوه كرة ذهبية ضخمة. ويعتبر هذا الجناح بمثابة شقة خصوصية ملحقة بالمدخل الذي يشكل قاعة مغلقة فاخرة الأثاث تستخدم مأدبة وغرفة استقبال للضيوف الخصوصيين. وفي هذه القاعة يقف حرس الباشا الخصوصي بسلاحه ساهراً كل ليلة على سلامة سيده النائم. والجزء الثالث من هذه الخيمة رواق في الجهة الأمامية للقاعة تفصله ستارتان إحداهما من حرير قرمزي والأخرى من نسيج مطرز. هنا يجلس الباشا على أريكة ويستقبل عامة الناس ويستمع إلى شكاواهم ودعاواهم ويصدر أحكامه، وكذلك يتلقى البيعة من رؤساء البلاد التي خضعت لسلطانه، ومنها يصدر أوامره لضباط جيشه. ويحيط الحرس (المماليك) بالخيمة من الخارج في يقظة وترقب كل ليلة. وعلى وجه التقريب فإن هذه الخيمة - المصنوعة من قماش القنب المصبوغ باللون الأخضر المخطط بزخارف أنيقة، وتعلو أعمدتها بلا استثناء كرات مذهبة- تبلغ من الطول مائة قدم، أما أرضها فمكسوة بسجاد عجمي عليه مساند فاخرة. وأمام الخيمة يخفق علم الباشا وتقبع

مزهريات لنبات (ذيل الخيل) تستبدل بثريات زجاجية ليلاً.

في التاسع عشر من هذا الشهر، استدعاني الباشا فمكثت عنده – في لقاء خاص – زهاء الساعة. وفي الحادي والعشرين منه أصيبت عيناي بالرمد. وتدهورت حالتي – خلال يومين – بحيث لم أعد أستطيع أن أفتح عيني أو أن أتحمل تسرب الضوء إليهما، وفارقني النوم من فرط الألم إلا بعد أن خضعت لعلاج بمادة مخدرة. وظللت لفترة من الوقت أعاني ما يعانيه الأعمى الذي يتخبط في الظلام. ولقد أصابني سوء الطالع هذا إصابة قاتلة حيث أعجزني عن مصاحبة الباشا [1] الذي بارح بالجيش إلى دنقلا في السادس والعشرين من الشهر بمحاذاة الضفة الغربية للنهر، بعد أن خلّف وراءه (ديوان أفندي) وعددا قليلا من الجنود للقيام بمهمة شحن وتحميل المراكب التي لم تكن جاهزة للتقدم عبر الشلال.

وفي الثالث من محرم ١٢٣٦للهجرة، صعدت على متن مركب الجراحين المصاحبين للجيش بتوجيه كريم من الباشا. فغادرت الطرف الأسفل (أو الشمالي) للشلال الثاني – كما تشير إليه الخرائط عادة – في فوج من خمسة عشر مركباً للحاق بالجيش الغازي.

أود – هنا أن أقول أن ما يطلق عليه (الشلال الثاني) خلال فترة الفيضان، هو سلسلة من المنحدرات الفرعية والاندفاعات المائية التي تمتد إلى مسافة تزيد عن مائة ميل قبل أن تصل إلى منطقة(السكوت). وقد

(١) كنت مهدداً بأن أموت جزافا إما صريعاً بين الصخور أو ضحية للشلال الجارف أو مذبوحاً بسكاكين الأهالي.

عددت تسعة منها كان بعضها (خصوصاً الثاني [1] والخامس [2] والسابع [3] والتاسع [4] وعراً للغاية بالرغم من أن منسوب النيل - في هذا الوقت - قد انخفض عدة أقدام. وقبل أن ندرك خامس هذه المساقط، تحطم مركبان عند الصخور المنتشرة في مجرى النهر وغرق آخر [5]. وقبل أن نجتاز المنحدر التاسع، حدث المزيد من الإصابات المشابهة.

كان من الضروري - لكي نعبر المنحدرين الثاني والسابع - أن نستعين بالأشرعة وبحوالي مائة من الرجال لسحب المراكب واحداً بعد الآخر ضد التيار. وعند الممر الثاني - على وجه الخصوص - تحطم العديد من المراكب وغرق جنديان وبحاران. ففي هذا الممر تعترض مجرى النيل صخور مغمورة في الماء على امتداد عرضه. غير أن هناك معبراً هائجاً يتسع لسحب مركب واحد ضد التيار. ويطل على هذا المعبر جبلان أحدهما على الضفة الشرقية والآخر على الضفة الغربية للنهر، تقوم عليهما خرائب لدفاعات قديمة. ويحيط بالجبلين معبدان صغيران من الطراز المصري، غير أن المعبد الذي يقع في الجهة الغربية كان بحالة جيدة تقريباً، وكانت عليه نقوش وصور هيروغلوفية من الداخل والخارج ويعلوه سقف سماوي اللون.

ويبدو منظر البلاد الواقعة على جانبي المنحدرات أشبه بذلك الذي

(١) يسمى: شلال سمنه.

(٢) يسمى: شلال أم بكول: (يوردها: Ambigool)

(٣) يسمى: تنجور: (يوردها: Tongaroo)

(٤) يسمى: شلال دال.

(٥) وهناك العديد الذي تهشم لكنه بلغ الشاطئ على أية حال، ثم أجريت عليه إصلاحات قبل أن يقتفي أثرنا.

يرى جنوب (أسوان)مباشرة. أي أنه صحراء رملية تتناثر فوقها جبال وتلال صخرية. والمنظر اليتيم للخضرة الذي يمكن رؤيته هو الذي يظهر على سطح بعض الجزر وفوق ضفتي النهر حيث تلفت أنظارنا – كل ميل أو ميلين – بقع صغيرة من الأراضي الخصبة التي حفل بعضها بالمزروعات والسكان. أما التلال الصخرية فتتكون – غالباً – من الجرانيت الأسود البديع الذي هو في لون ولمعة أجود أنواع الفحم الحجري. وقد رأيت – هنا وهناك في مواقع مختلفة من الشلال – بعض القلاع التي بناها الأهالي. وهي مشيدة بحجارة خشنة مثبتة بالطين ومحاطة بأبراج ونتوءات ذات زوايا وفتحات يستخدمها الرماة. أما من الداخل فتبدو المظاهر الآتية:

- هناك غرف منخفضة تحيط بالأسوار من الداخل.
- وهناك أبواب تربط الغرف ببعضها وأبواب أخرى تفتح على الساحة الداخلية للقلعة.
- لم يلفت نظري في هذه الغرف شئ سوى طحانات يدوية [1] صغيرة يستخدمها المشارقة لطحن الحبوب. ولقد تعذر على الأهالي سرعة انتزاعها من الأرض (حيث أنها كانت مثبتة بقوة). أما بقية الحاجيات فقد حملها الأهالي معهم حين تسامعوا بتقدم الجيش الغازي.
- أما الجزء الأكبر من مركز القلعة فيبدو أنه كان مخصصاً لجمال وماشية الأهالي.

(١) وهي ما يسميه السودانيون: (مرحاكة) – المترجم.

وبعض هذه القلاع ترى وهي تعلو الجزر الصخرية المرتفعة والتي تنتشر في منطقة الشلال الثاني وتضفي عليها منظراً أخاذاً.

في الثاني من شهر صفر مررنا بما أسماه (ريس) مركبنا - خطأً - المنحدر الأخير بيننا ومنطقة (السكوت). وقد مر علينا - حتى هذه النقطة - ثلاثون يوماً. وأسباب هذه المدة الطويلة - التي استغرقناها في عبور المنحدرات - عديدة. أما بحارة المراكب الذين اجتازوا أحد الممرات بسلام، فقد احتاجوا إلى وقت مقدر لإفراغ وإصلاح مراكبهم التي أصابها العطب. وبالنسبة لنا فقد توقفنا عند مداخل هذه المعابر لأيام انتظاراً لهبوب الريح ذلك أنه كان من الضرورة القصوى أن تهب علينا ريح قوية تدفع بالمراكب خلال التيارات الجارية - بعنف - بين الصخور. ولطالما تردد البحارة في محاولة عبور المنحدرات الخطرة إلا أنهم انصاعوا لتهديدات (ديوان أفندي) المصاحب لرتل المراكب.

وفي الثالث من صفر، وبعد ساعة من مرورنا على ما أسماه (ريس) مركبنا: (المنحدر الأخير)، رأينا حطام إحدى المراكب يرقد على صخرة في منتصف النهر ولا يرى منها - فوق الماء - سوى صواريها، فالنهر هنا تعترضه العديد من الصخور المنعزلة العالية. وبما أننا قد تلقينا تأكيداً يفيد بأن النهر - هنا - يجري بغير عوائق حتى يبلغ منطقة (السكوت)، فإن حطام هذا المركب كان يناقض ذلك التأكيد. وبعد مرور ساعة تجمع لدينا من الأسباب ما يكذب مزاعم (الريس).

كنت حينها أهنئ نفسي بوصولنا إلى المياه الهادئة وأخذت أستمتع بعبوة من تبغ غليوني. وفجأة هدأت الريح عندما كنا نمر من بين صخرتين تماما. حيث كان النهر يجري بسرعة ست عقد في الساعة. فتغلب التيار الجارف على ما يدفع الأشرعة من ريح وحط المركب - توا - بين الصخور المنبسطة قرب الضفة الغربية للنهر. وبعد أن مرت علينا عشر دقائق من العسر والحرج، تمكن ربابنا الماهر من قيادة المركب إلى الشاطئ بسلام.

بقينا طوال الليل في مكاننا من الشاطئ. وفي الصباح نشرنا أشرعتنا لاجتياز التيار العصي الذي كابدناه بالأمس بلا جدوى. وبعد نضال امتد زهاء الساعة، اضطررنا للعودة إلى الشاطئ انتظاراً لهبوب الريح. ومضت ساعة أخرى هبت الريح بعدها ودفعت المركب - بحظ أوفى - إلى الأمام، فاجتازت التيار إلى صفحة الماء الهادئ. وبعد ساعة من الإبحار توقفنا لمدة عشر دقائق عند موضع رأينا فيه قطيعاً من الضأن لنشتري خرافاً نقتات بها، إذ أن طعامنا - خلال العشرين يوماً الأخيرة - اقتصر على الأرز ورغيف الخبز والعدس، فنجحنا في شراء حملين. . كان الشاطئ هنا يمتد على بعض الأراضي الخصبة التي كان قليل منها يتم تحضيره للزراعة.

وعند الظهيرة هدأت الريح، فانحاز (الرئيس) نحو الشاطئ وانهمكنا نحن - مباشرة - في تجهيز اللحم الذي اشتريناه. ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى استمتعنا بطعام شهي كان بالنسبة لي ألذ ما تذوقت منذ سنين. وانتظرنا هنا بقية اليوم.

وفي الرابع من صفر بقينا في نفس المكان لأن الريح لم تكن مواتية للإبحار ضد تيار النهر. وبعد ساعتين من حلول الظهيرة جاءنا أعرابي يريد مقابلة (ديوان أفندي) الذي كان على بعد أميال قليلة من خلفنا وليخبره أن مركباً (كان هو أحد بحارته) قد تهشم على الصخور حينما كان يحاول اجتياز أحد المنحدرات. فسألته: «كم عدد المنحدرات التي تنتظرنا؟» فأجاب بأن هناك العديد منها غير أنه لا يعرف عددها بالضبط. وكان هذا الخبر يعني بالنسبة لي أننا ربما بقينا شهراً نكابد هذه العوائق، مما دفعني لتجديد محاولاتي من أجل الحصول على جمال تحملني - إلى الباشا - براً. فحاولت مراراً استئجار بعضها لهذا الغرض - خلال الخمسة عشر يوماً الأخيرة - بلا طائل. وأخبرني الرجل المذكور آنفاً بأن في إمكاني استئجار بعضها من قرية تبعد مسيرة ست ساعات، فصممت أن أبعث بخدمي في الصباح للاستفسار عن هذه الحقيقة.

وفي الخامس من صفر، قضينا الليل في نفس المكان. وفي الصباح الباكر هب علينا نسيم فنشر (الريس) أشرعة المركب ونتيجة لذلك وجدت نفسي ملزماً بمتابعة الرحلة بالمركب ما دامت الريح تدفعها إلى الأمام. وعندما تقدمت بنا المركب رأيت بقعاً من الأراضي الخصبة التي كان بعضها قد تم إعداده للفلاحة، كما رأيت قليلاً من القرى المتواضعة التي علمت أن عددها سيزداد كلما تقدم بنا المسير. . في هذا اليوم الذي هبت فيه علينا ريح مواتية، قطعنا اثني عشر ميلا ضد اندفاع التيار.

في السادس من صفر، انطلقت بنا المركب بعد ساعتين من شروق الشمس وقد امتلأت أشرعتها بريح شمالية قوية. وبعد مضي ساعة اقتربنا من منحدر خطر تتخلله صخور تمتد من الشاطئ إلى الشاطئ وأثناء عبورنا للمنحدر، سكنت الريح لنصف دقيقة فحمل التيار المركب إلى الخلف وعلى بعد ستة أو سبعة أقدام من منطقة الصخور. وعند هذه النقطة الحرجة تجددت الريح ودفعت المركب فوق التيار الجارف، فتنفس الجميع الصعداء وامتلأت نفوسهم بالارتياح. ثم مضت ساعة مررنا خلالها ببقعة ذات منظر بديع. هنا تعترض النهر جزيرة صخرية عالية تقسم مجراه إلى رافدين، ويرى العابر - عند سفحها - بقايا حصون بناها الأهالي. وعلى الضفة اليمنى للنهر قبالة الجزيرة تتمدد أرض زراعية وقرية تحفها أشجار النخيل والخضرة.

في الظهر أرسى (الرئيس) المركب عندما هدأت الريح بينما بدت في الأفق الصخور والمنحدرات العاتية. و لم نكن قد قطعنا - خلال هذا اليوم - سوى ثمانية أميال عندما لاحت لنا على مسافة ميلين أعداد من المراكب راسية بالشاطئ (ربما لأن المنحدرات والصخور قد صدت مسيرتها).

وفي منتصف النهار - وعندما كنت أسير على الشاطئ - رأيت تمساحاً صغيراً لا يزيد طوله عن ثلاثة أقدام يستدفئ بحرارة الشمس. وحال اقترابي منه انطلق جارياً كما الجن وقفز في النهر.

وفي السابع من صفر، انطلقت بنا المركب بعد ساعتين من الشروق في

محاولة لاجتياز الصخور والمنحدرات التي سبق ذكرها . كان الممر وعراً وقد تهددت المركب أخطار وشيكة. فها هي تحتك بصخور ما تحت الماء في مواجهة تيار يندفع بسرعة ست عقد في الساعة.

وجرف الماء المركب بعيداً - بعد حوالي عشر دقائق - دون أن تحدث الصخور ثقباً في قعرها وإلا كنا قد لقينا حتفنا المحتوم. وبعد برهة ألفينا أنفسنا محصورين ما بين دوامة عظيمة ضحلة ومركب على يميننا جرفها التيار نحونا بحيث صارت مركبنا مهددة بالوقوع في قلب الدوامة. وتشابكت أشرعة المركبين مما دعاني للاستعداد للقفز على المركب الآخر توقعاً لما سيلحق بمركبنا من خراب. لكن الريح اشتدت وفكت الارتباط بالمركب الأكبر. ولم يمض من الوقت إلا القليل حتى مالت نفس المركب علينا تارة أخرى بحيث إننا لو انحرفنا - في اتجاه الريح - بما يعادل طول مركبنا مرتين أو تراجعت بنا المركب في اتجاه التيار، لوقعنا في شراك الصخور المدببة.

جرت كل هذه الأحداث في وقت كنا نرى على مقربة منا حطام مركب كان يحاول عبور الممر المائي قبل ثلاثة أو أربعة أيام. وبعد أن واجهنا قدراً من المخاطر لمدة ساعتين، لاذت المركب بضفة النهر الغربية حيث وجدنا عدداً من المراكب تنتظر هبوب الريح التي تمكنها من اجتياز المنحدر الذي هو هنا في أعلى عنفوانه. [1] مكثنا في هذا المكان - انتظاراً للريح - يومين. وفي العاشر من صفر، اجتاز المركب - بسلام - ما تبقى

(١) لقد رأينا - بلا استثناء - في كل ممر وعر مركباً أو أكثر من مراكبنا مهشمًا.

من المنحدر، وعندما هدأت الريح، انحاز (الريس) إلى البر انتظاراً لاجتياز تيار قوي آخر. وعندما اتجهت أنظارنا إلى الجهة المقابلة لمرسى مركبنا – وعلى بعد نصف ميل من الشاطئ – رأينا مركباً جانحة في منطقة صخرية – هذا الصباح – وقد باءت كل محاولات تحريرها بالفشل. وظلت محتجزة في ذلك المكان – بمن كانوا على ظهرها – حتى صباح اليوم التالي.

وفي الحادي عشر من صفر، أبحرنا بعد نحو ساعة من بزوغ الشمس، تدفعنا ريح شمالية رائقة. فاجتزنا المركب التي سبق ذكرها ورأينا البؤس في عيون الذين كانوا على متنها. وفي وقت لاحق اتجهت مراكب صغيرة إلى حيث المركب الجانحة لتفريغ حمولتها إذ تعذر تخليصها مما وقعت فيه. وواصلنا المسير فمررنا بعدد من الجزر الصغيرة ذات المنظر الحسن تستلقى قرب الضفة الغربية للنهر. وبدأ جلياً أن أرضها قد تم إعدادها للزراعة كما أنها استوعبت عدداً مقدراً من السكان. وأخذ منظر الضفاف يتطور إلى شكل أحسن (هنا ندخل منطقة السكوت ذات القرى العديدة). . ومن وراء ضفاف النهر السندسية تمتد الرمال الصحراوية الصفراء التي تتناثر من فوقها جبال صخرية داكنة تتلاشى عدداً ومقاماً كلما اتجهنا صعوداً حتى استقر المنظر على هيئة سهل منبسط تتخلله تلال قليلة مبعثرة ذات شكل بديع هنا وهناك.

وبعد ساعتين من منتصف النهار، حللنا ببقعة – من النهر – تعترضها صخور ومياه ضحلة وذلك باستثناء معبر ضيق في الجهة الغربية. وتبين لنا

أن التيار هنا من القوة بحيث يتعذر علينا اجتيازه بما تهب علينا من رياح، ولذلك اتجهنا إلى جزيرة[1] جذابة المرأى في جهة اليسار حيث قضينا بقية اليوم قانعين. وعندما تأملنا هذه الجزيرة وجدنا أن طولها لا يتعدى ميلاً ونصف الميل وأن مناظرها الطبيعية جميلة وأن حوالي خمسين أو ستين من سكانها يقومون بفلاحتها وهم بذلك راضون حامدون شاكرون. . . رأينا هنا رجالاً ثلاثة – في حوالي الخامسة والعشرين من العمر – تم ختانهم قبل خمسة أيام. وهذا شئ لا أعرف له سابقة بين أبناء المسلمين.

في الثاني عشر من صفر انطلقنا في ساعة مبكرة تدفعنا رياح شمالية قوية لاجتياز التيار الذي أوقفنا البارحة. وكان إبحارنا اليوم أطيب ما عرفنا منذ أن غادرنا مصر. واتسع النهر مثلما يرى في مصر – منذ أن عبرنا منحدرات (دال) حيث ينتهي الشلال الثاني – وأخذ يجري هادئاً عبر أراض خصبة تمتاز بمناظر أجمل مما شاهدنا في أروع بلاد الصعيد. وعلى الضفة الشرقية للنهر – بخاصة – تتابعت القرى وامتدت الأراضي المشبعة بالطمي واشرأبت أشجار النخيل واخضرت الحقول. وتوقفنا – ليلا – بإحدى الجزر الواسعة البديعة المكتظة بالقرى حيث كانت تسير بنا المركب على حافتها ونحن في ذروة المتعة على مدى أربع ساعات بينما كانت تهب علينا نسمات قوية. وقد أفادنا الأهالي بأن عرض هذه الجزيرة يساوي مسيرة يوم على الأقدام.

---

(1) يقول الكاتب أن هذه الجزيرة تسمى (قنتي) وفي هذا القول نظر - لأن (قنتي)ليست جزيرة ولا تقع في منطقة (السكوت).

وأخبرونا أننا سنلقي قدما جزراً أخرى أكبر منها. وقالوا لنا إن اسم هذه الجزيرة هو (صاي) [1] . وقد بدا لنا أنهم راضون بحالهم لأنهم يجدون ما يؤمن لهم حياة رخية وينسجون بأيديهم ما يكتسون به من ملابس تتسم بالحشمة واللياقة. غير أن الذي أدهشني هو أن هؤلاء الناس [2] بيض البشرة مثل عرب مصر السفلى بينما يعرف سكان النوبة ببشرة شديدة السواد غير أن ملامحهم ليس فيها شئ من التقاطيع الزنجية.

لقد لاحظت أن المنطقة التي مررنا بها - اليوم- خصبة وأكثر جمالاً من بلاد الصعيد والسبب في ذلك أن طبيعة تضاريس الصعيد تنحصر في سلسلة من الجبال القاحلة المتكلسة الممتدة على الضفتين بينما يترامى المنظر - هنا - على امتداد سهل لا يحده إلا خط الأفق وتتناثر فوقه هنا وهناك جبال معزولة ذات أشكال متفردة. وقد يخطئ من يراها فيحسبها إهرامات بسبب انتظام شكلها وصرامة معالمه. فبعضها يشبه أشكالاً مخروطية سامقة وأخرى تماثل الحصون المربعة أو المخمسة العالية. وأحد هذه الجبال المتفردة يقع على ضفة النهر الشرقية ويمكن بسهولة أن يستخدم كقلعة حصينة تسيطر على كل المواصلات النهرية ما بين مصر ودنقلا.

لقد محت مناظر الخضرة والزراعة كل الشكوك التي ساورتني حول ما قيل لي عن الفرق الشاسع بين ملامح بلاد النوبة وما وراءها من البلاد.

---

(١) يوردها هكذا: (Syee).

(٢) يحتمل أن يكونوا من سلالة جنود الحامية التركية الذين تمركزوا في (صاي) بأمر السلطان سليم (أول السلاطين العثمانيين الذين غزو مصر).

وتتوسط كل القرى – التي مررنا عليها اليوم – قلعة أو حصن ذو أبراج ويمكن القول – بعد أن قمت بزيارة لها – إن باطنها يماثل ما رأيناه في دفاعات الشلال السالف ذكرها. وتتكون القرية من أكواخ منخفضة (من الطين أو الطوب الأخضر) تحيط بأسوار القلعة التي يلجأ إليها الأهالي عند التراجع او الدفاع عن النفس والأنعام حين الهجوم أو الخطر. وحكومة القرية يسيطر عليها نظام وراثي أبوي يجمع فيه (الشيخ) بين القضاء والزعامة ولقد رأيت – في هذه الجزيرة– مركباً شراعية صغيرة مملوكة للأهالي. هي الأولى التي شاهدت منذ أن غادرت (وادي حلفا).

وفي الثالث عشر من صفر أبحرنا بعد ساعة من شروق الشمس في مسير كان الأفضل من رحلة البارحة. فعلى ضفة النهر الشرقية، كانت العين ترصد قرى متتابعة فوق أراض من أجود الأنواع وتستظل بغابات من أشجار النخيل الضخمة الفارعة الطول بما يفوق – في نظري – ما ينمو في مصر. وعلى يميننا كنا نرى – في مسيرنا – سلسلة من الجزر الرائعة المنظر كان بعضها واسعاً ويحاكي مشهد الضفة الشرقية. . لا شك أن هذه البلاد تتمتع بجمال أخاذ.

كان عرض النهر – من أسوان حتى الشلال الثاني – لا يتجاوز نصف مثيله في مصر، أما عرضه هنا فيساوي مثيله في مصر. وفي أماكن عديدة حيث تترامى الجزر يتجاوز عرضه ما هو في مصر.

توقفنا – ليلا – عند إحدى هذه الجزر البديعة التي لا يتعدى عرضها

الميلين مما مكننا من مشاهدة الضفة الغربية التي تتوالى فيها القرى والخضرة كما هو الحال على الضفة الشرقية.

تبين لنا أن هناك فرق في الحجم بين الحيوانات في مصر وحيوانات هذه البلاد. فقد اشترينا حملاً رضيعاً كان – من المؤكد أنه – في حجم خروف مصري يبلغ من العمر عاماً.

وتختلف أبقار هذه البلاد عن أبقار مصر بكونها شبيهة بالجاموس. وهي تتميز بلحم بارز على الكتفين والوركين وبحجم أكبر من الأبقار المصرية.

وفي الرابع عشر من صفر لم تهب الريح هذا الصباح إلا في ساعة متأخرة. فقد هبت لحوالي ساعة ونصف الساعة ثم خمدت. فأرسينا المركب على الضفة الغربية للنهر حيث قضينا بقية اليوم والليلة. واستمر المنظر الجميل، وتكاثر القرى وتواليها. هنا حاول بعض رفقاء الرحلة اصطياد أحد أفراس النهر. فما نجحوا إلا في إصابته بجرح بسيط ما لبث بعدها أن اختفى في أعماق الماء. ويقول أهالي هذه الناحية إن قطيعاً من أفراس النهر يجوب هذه البقعة من النهر حيث تبرز بعض الجزر الضحلة التي توفر لها العشب وتسهل لها الاختباء.

وفي الخامس عشر من صفر بارحنا ضفة النهر بعد ساعتين من شروق الشمس تدفعنا هبوب قوية، غير أنها سكنت بعد ساعة ونصف الساعة، فعدنا إلى الشاطئ. وأرسينا المركب عند جزيرة واسعة شبيهة بتلك الجزر

التي سبق أن أرسينا عندها، حيث أمضينا ما تبقى من النهار واتبعناه بقضاء الليل، وكان المشهد كالذي رأينا من قبل: ارض خصبة ذات بهجة وري.

وفي السادس عشر من صفر، غادرنا الشاطئ بعد ساعة من بزوغ الشمس. وبلغنا الطرف الجنوبي لبلاد (السكوت) الجميلة، ثم دخلنا منطقة(المحس) [1] بعد نصف ساعة. وكانت الأرض التي مررنا عليها خصبة غير أنها لم تكن مكتظة بالقرى كما هو الحال في بلاد (السكوت). وبعد ثلاثة ساعات من شروق الشمس مررنا بحطام معبد أثري قائم عند الضفة الغربية. فأقنعت (الريس) بصعوبة ليرسي المركب لبضع دقائق تمكنني من مشاهدة هذا المعبد.

لقد اتضح لي بجلاء أن المعبد كان عملاً معمارياً مصرياً يبلغ من الطول مائتي قدم من الشرق إلى الغرب، ولم يتبق من أعمدته القائمة سوى عشرة تتكون من حجارة داكنة تشبه تلك التي استخدمت في بناء معابد (جزيرة فيله). أما حيطان المعبد فحطام، وذلك باستثناء جزء من الواجهة الأمامية التي كانت في حالة مزرية، وأما الواجهة الشرقية فذات أعمدة وحيطان خربة كانت عليها نقوش هيروغلوفية.

كان المعبد ينتصب على الضفة الغربية للنهر وعلى بعد حوالي ميلين من حدود بلاد (السكوت). وعندما غادرناه أبحرنا حوالي ساعة ثم سكنت الريح فأضطر (الريس) أن يعود إلى الشاطئ الغربي حيث لا يتجاوز عرض النيل - هنا - إلى ما دون الميل الواحد. ونسبة لهدوء الرياح فقد

(١) يوردها هكذا: (Machass).

بقينا في هذا المكان حتى صبيحة اليوم التالي. وقد مر العديد من خيالة الباشا - أمس واليوم - على طول الضفة الغربية للنهر وهم يحملون أوامر مشددة من (دنقلا) إلى قادة المراكب بالإسراع في المسير.

وفي السابع عشر من صفر بارحنا الشاطئ في ساعة مبكرة تدفعنا ريح مواتية، لكننا - بعد حوالي ساعتين - إضطررنا للعودة إليه. فالنهر - هنا - يمر بانعطافات عديدة يرسم كل منعطف مع الآخر زاوية قائمة. وقد أدى هذا الوضع إلى دفع المركب في غير اتجاه الريح - عند أحد المنعطفات - مما أجبرنا على البقاء هناك حتى الصباح.

إن البلاد التي شاهدنا - اليوم - لا تشبه منطقة (السكوت)، فأشجار النخيل والقرى والخضرة لا تسير على وتيرة منتظمة، والمناظر التي شاهدنا - من موقعنا بوسط النهر - تعترضها - على مسافة قصيرة من الشاطئ - تلال صخرية منخفضة. غير أن نمطاً فريداً من وسائل الملاحة قد استرعى انتباهنا، فقد رأينا رجلاً - كان واضحاً أنه مسافر بكل عائلته في اتجاه التيار - قد اركب زوجته الصغرى وطفليها على (طوف) صغير مصنوع من سيقان القمح المتماسكة، وظل هو سابحاً إلى جانب(الطوف) وهي سابحة أيضاً. وبهذه الطريقة تقدموا في اتجاه تيار النهر.

لقد رأيت في هذه البلاد (أطوافاً) صغيرة جيدة الصنع وتتسع لشخص واحد. ويصنع (الطوف) بإحكام تثبيت ثلاث أو أربع (قرعات) [1] كبيرة مجوفة تحت إطار مستطيل صغير من جريد النخل، ولا يزن (الطوف) -

(١) المفرد: (قرعة) وهي ثمرة نبات صحراوي في حجم البطيخة - المترجم.

في مجمله - رطلين. ويستطيع الشخص أن ينتقل بهذا (الطوف) في اتجاه التيار أو عبر النهر بأمان وذلك بأن يربطه على صدره ويسبح به أو أن يعتليه وهو منفرج الساقين واقفاً. ويمكن للشخص - عند بلوغ الشاطئ - أن يحمل (الطوف) بسهولة إما بيده أو على كتفه.

وفي صباح الثامن عشر من صفر تغيرت الريح - قليلا - لصالحنا، فانطلقت بنا المركب غير أننا- بعد إبحار لمدة ساعتين - عدنا إلى الشاطئ وبقينا هناك حتى منتصف النهار. ثم هبت الريح مواتية فتقدمنا في إتجاه أعالي النهر.

يبلغ عرض النهر - هنا - حوالي نصف ميل وهو يجري في منحنيات عدة أعاقت تقدمنا. ولقد لاحظنا بعض الصخور والمناطق الضحلة عند وصولنا إلى جزيرة صخرية واسعة حيث ينقسم المجرى إلى فرعين، ورأينا مركباً جانحاً اتخذ سبيله عبر الفرع الأيمن الأوسع. كما رأينا مركبين آخرين يعودان أدراجهما للمرور عبر الفرع الآخر. فحذونا حذوهما لنجد الطريق سالكاً ومأموناً. وبعد مسافة قصيرة من الطرف الأمامي لهذه الجزيرة، ينحرف النهر بزاوية حادة نحو اليمين. وسرنا قدماً حتى الغروب حين أرسينا برفقة مركبين آخرين.

كانت المنطقة التي اجتزناها - اليوم - تشبه تلك التي رأيناها بالأمس. فقد بدت لنا أقل شأناً بالمقارنة مع بلاد (السكوت).

وفي التاسع عشر من صفر أبحرنا بعد ساعة ونصف الساعة من شروق

الشمس تدفعنا ريح شمالية طيبة، وتقدمنا لمدة نصف ساعة عبر منطقة تقترب فيها الجبال - هنا وهناك - من ضفتي النهر حيث يضيق المجرى بصورة واضحة وتمتد مزارع خضراء قليلة. وبعد أن اتسع المجرى - بقليل - تراجعت الجبال وبدت لنا بلاد خضراء جميلة يفلحها الأهالي الذين كانوا يقطنون قرى وقلاع تنتشر على ضفتي النهر.

تشبه هذه البلاد منطقة (السكوت) باستثناء أن أشجار النخيل - هنا - قليلة وأقصر قامة وأصغر حجماً وقد مررنا - بعد ذلك - بآثار مدينة حصينة تتربع على قمة جبل عال بالضفة الغربية. وبعد أن اجتزنا هذا الموضع بقليل رأينا آثار معبد قديم ما زالت أربعة من أعمدته قائمة، لكننا لم نتمكن من الاتجاه إلى البر لمشاهدته عن قرب لأن الريح كانت مواتية ولأن (الريس) كان ملتزماً بالأوامر الصادرة إليه بالتقدم بأقصى سرعة.

لاحظت أن العديد من الحصون التي مررنا بها - أمس واليوم - كانت تبدو أكثر جدة وأقوم بنيانا ومنعة من تلك التي شاهدناها على امتداد الشلال، وينتابني شعور بأنها قد أقيمت بأوامر من المماليك [1] لأن هذه الأصقاع من البلاد كانت خاضعة لهم قبل أن يحل بها إسماعيل باشا[2]. وواصلنا المسير عبر بلاد ذات جمال آسر حيث يحتضن النهر العديد من الجزر الواسعة البهيجة التي تعهدت أرضها الخصبة أياد ماهرة بالفلاحة. وقد واصلنا إبحارنا الممتع بمحاذاة هذه الشطآن والجزر الساحرة لمدة

(١) بعد دحر - (محمد علي باشا) المماليك قبل اثنتي عشرة سنة - استوطن من تبقى منهم (دنقلا).

(٢) قبل أن يزحف الباشا من (وادي حلفا)، هرب المماليك إلى: (شندي).

ساعة ونصف الساعة قبل غروب الشمس حينما فاجأنا منحدر مائي تحطمت عنده إحدى المراكب وهي تحاول العبور. هنا انحاز (الريس) نحو الشاطئ ليركب معه أحد الأهالي لإرشاده حول إمكانية الإبحار وسط الصخور والمياه الضحلة. غير أن المحاولة باءت بالفشل.

وبعد أن مكثنا في الممر الفوار لمدة ثلاثة أرباع الساعة، وجدنا أن الريح لم تكن قوية بما يكفي لدفع المركب ضد التيار. وبما أن الشمس كانت على وشك الغروب في وقت كانت الريح قد سكنت، فقد وجد (الريس) أن لا مناص من العودة إلى الشاطئ.

وفي العشرين من صفر – وبعد ساعتين من شروق الشمس – قرر (الريس) أن الريح مواتية بما يكفي لدفع المركب عبر المنحدر المائي. فغادرنا الشاطئ وواجهنا التيار من جديد ولم يكن (الريس) هذه المرة مخطئاً فقد شقت المركب طريقها ببطء ولكن بنجاح. وبعد حوالي ثلاثة أرباع الساعة حلت بنا المركب بسلام فوق المياه الهادئة. فاندفعنا – بكل ما توفر لنا من هبوب الريح – إلى أعالي النهر وقد حفت بنا الشواطئ الخضراء الخصبة التي فلحتها همم الأهالي أصحاب القرى المتتالية التي ظللتها أشجار النخيل. وبعد انقضاء ساعة من اجتيازنا للمنحدر المائي، توقفنا لحمل ثلاثة من رفاقنا الذين غادروا المركب بالأمس بحثاً عن زاد طازج على الضفة الغربية للنهر. فأفادونا بأنهم قد عثروا على غدير واسع من المياه العذبة وراء الضفة وأنهم وجدوا البر – على بعد سبعة أميال من

شاطئ النهر - يكتظ بقرى ذوات أراض خصبة. وقالوا إن هذه البلاد تروي بنوعين من السواقي: النوع الأول يدور عند الشاطئ ويصب ماء النيل في قنوات تنتهي إلى أحواض في أعماق البراري حيث يدفعه النوع الثاني ويوزعه على تلك الأراضي الطيبة.

وعند الظهر مررنا بصخرتين (عملاقتين منعزلتين شكلهن غير منتظم لكنهما حسنتا المنظر) إشرأبتا على جانب الشاطئ الشرقي. وعلى حافة الصخرة الجنوبية القصوى، رأينا خرائب مدينة حصينة. . لقد كان منظر البلاد - في هذه الناحية - بالغ الجمال.

وفي حوالي الساعة الثالثة مررنا بمنحدر مائي آخر لم يكن - على كل حل - صعباً. غير أن مجرى النهر في ما يلي هذا المكان ضاق كثيراً وعج بالصخور. ثم مررنا بمنحدرين آخرين أولهما قليل الأهمية، أما الآخر فقد كان على شئ من الخطر، وقد رأيت فيه صبيين يجلسان على (طوف) من سيقان الذرة المتماسكة ويتجهان به في مواجهة التيار. ولم يكونا منزعجين بالرغم من أن التيار كان يدور بالطوف عندما مر بنا. وحال عبورنا لهذا المنحدر المائي غربت الشمس، فاتجهنا إلى الشاطئ لقضاء الليل.

وفي الحادي والعشرين من صفر، غادرنا الشاطئ بعد حوالي ساعتين من شروق الشمس يدفعنا نسيم منعش. لقد كان النهر - هنا - عريضاً وكان الشاطئان خصبين ومأهولين بالناس. وبعد مسيرة ساعة حللنا بجزر رائعة المنظر، كانت أحداهما فسيحة الأرجاء إلى حد كبير وكانت من

بين أروع ما رأينا. ولعل الجزر الواقعة في منطقة ما بعد الشلال الثاني هي أروع ما يسقي النيل من بلاد، وهي مواطن قلما تتعرض لفيضانه. إنها الأكثر سكاناً والأحسن زرعاً في كل هذه المنطقة. وبعد نصف ساعة من حلولنا بالجزيرة الكبرى، عصفت الريح وعجزت المركب عن إحراز تقدم آمن، فانحاز (الريس) إلى الشاطئ مثلما فعلت المراكب الخمس التي كانت ترافقنا. وبقينا هنا إلى نهاية اليوم.

وفي الثاني والعشرين من صفر، غادرنا الشاطئ - صباحاً - تدفعنا الريح إلى الأمام، وبعد إبحار لمدة ثلاثة أميال، رأي (الريس) أن يتجه إلى البر لأن الريح كانت أقوى مما يجب. وبقينا بالبر حتى الظهر إلى أن بدا لي ولمن كانوا على سطح المركب أن الريح قد صارت مواتية، وبعد أن تبادلنا كلاماً جافاً مع (الريس) دفعناه لمواصلة المسير في ريح عاصفة، كما كان الحال صباحاً. وبعد مسيرة ساعة وصلنا إلى نقطة ينعطف فيها النهر مكننا من أن نضع المركب في اتجاه الريح، فاندفعنا بسرعة بالغة وبحذر بين الصخور والمواقع الضحلة حتى أبصرنا من بعيد أحد المنحدرات المائية. وقد علمنا قبل يومين بوجود منحدر مائي خطر بيننا وبين (دنقلا) فهنأنا أنفسنا على الريح القوية التي هبت علينا ومكنتنا من اجتيازه، فعبرناه بسرور مشوب بالمجازفة.

ولم تكد نفوسنا تنشرح باجتياز العقبة اليتيمة بيننا وبين محطتنا الأخيرة - كما ظننا - حتى أطلت علينا عقبة أخرى ذات طلعة أصعب مما خبرنا

حتى ذلك الوقت. فقد كان النهر يندفع بعنف فوق الصخور المغمورة. ودفعت الريح العنيفة مركبنا إلى جوار مركب آخر كان يصارع الموج مترنحاً عبر الممر المائي، فأصبح المركبان لقمة لخطر وشيك. ولكي يبتعد (الريس) عن جوار تلك المركب، فقد خاطر بقيادة مركبنا فوق مياه فوارة تنبئ بوجود صخور مغمورة في المجرى. فحبسنا أنفاسنا خوفاً من أن نرتطم بالصخور غير أن المركب ساخت – بعد نصف دقيقة – في كوم من الرمل. ومكثنا على هذه الحال مدة ربع ساعة على مقربة من حطام مركب آخر كان قد ضل طريقه في هذه الناحية. وبعد جهد جهيد استطعنا أن نسحب مركبنا في اتجاه الريح إلا أننا بلينا تارة أخرى بذلك الممر اللعين. واقتربت المركب – بقوة التيار – من دوامة فوارة واسعة تكونت بفعل تيار معاكس من جانب الممر. فحاول موجه الدفّة عبثاً أن يتجنب اندفاع المركب. واقترب جانب المركب إلى مسافة ياردة واحدة من الزبد الأبيض الذي عم هذا الموقع الرهيب. وخلع (الريس) عمامته من رأسه وبسط كفيه بالدعاء أن "يا ربنا أنجدنا". وجأر بقية البحارة بالدعاء إلى أن سحبت العناية الإلهية المركب من هذه الورطة ومن الأخطار الأخرى التي تهددتنا عند مرورنا بمنحدرين مائيين آخرين لا يقلان خطراً. وبعد مرورنا بالمنحدر الأخير، وجدنا أن النهر ينقسم طولاً بسلسلة تلال صخرية وجزر منخفضة مغطاة بالخضرة. ومن الجانب الأيمن (الغربي) لهذه السلسلة – حيث كنا – كان المنظر الذي بدا لنا – في الأفق – ركاماً

من الصخور التي لا يمكن اجتيازها. وقد تخللت السلسلة الصخرية - سالفة الذكر - بعض الفروج التي يمكن الولوج منها إلى الأمام. فاخترنا أن نلج ما رأينا أنه الأسلم من تلك الفروج. وسرعان ما وجدنا أنفسنا نبحر فوق مياه صافية لكنها ضحلة. هنا يبلغ عرض النهر ما لا يقل عن خمسة أو ستة أميال تقريباً، وتنتشر فيه الصخور والجزر الصغيرة الخضراء والسلاسل الجبلية. ثم ما لبثت إحدى مراكب المقدمة أن إرتطمت بالقاع وانغرست لبعض الوقت. وبعد مضي خمس دقائق تلقت مركبنا ضربة من صخرة تحت الماء. وقد سير (الريس) المركب بأشرعتها الأمامية وحدها حتى يكون الارتطام - إذا حدث - خفيفا بقدر الإمكان. وبعد ذلك (أي قبل ساعة من غروب الشمس)، اتجه (الريس) إلى الشاطئ لاستفسار أهل الناحية عن حالة النهر في المناطق التي نتجه إليها.

كان الإقليم الذي رأيناه - على جانبي النهر سهولاً مسطحة، باستثناء جبل واحد. وكانت الشواطئ وكثير من الجزر التي اجتزناها - اليوم - ذات طبيعة خلابة وأرض خصبة وخضرة يانعة. وعندما نزلنا من المركب ألفينا أنفسنا في جزيرة جميلة واسعة تظللها أشجار من أنواع مختلفة. وكان المنظر يمتد على سهل سندسي لا يحده إلا خط الأفق، هنا ينحني النهر انحناءة كبرى ذات فروع تشق جزراً وشواطئ خصبة تضارع في خصوبتها أفضل بقاع العالم، ومغطاة بأشجار لا يشكل النخل منها إلا نسبة ضئيلة واخبرنا الأهالي أن (دنقلا) لا تبعد - من هنا - إلا مسيرة سويعات.

وفي الثالث والعشرين من صفر - عند الشروق - أبحرنا في اتجاه أعالي النهر الذي وجدناه بالغ الاتساع وضحلاً وغطت أواسط مجراه سلسلة من الجزر التي - في رأيي - لا مثيل لها في أي نهر آخر، أما البر فقد كان سهلاً رائعاً، يمتد إلى حيث تستطيع العين أن ترى وخصباً كأخصب ما تكون الأرض ومغطى بأنواع شتى من الأشجار والنباتات وحقول الذرة، وجرت المركب بنا بريح طيبة إلى ما دون الغروب بنصف ساعة دون أن تبدو لنا (دنقلا) على مد البصر. وقد سبب لنا ذلك خيبة أمل نظراً للمعلومات التي تلقيناها بالأمس غير أننا ألهينا أنفسنا بمناظر الجزر والشواطئ التي كانت - مقارنة بأرض مصر نفسها - ذات خصوبة مترفة تنتج خيراً وفيراً.

وفي الرابع والعشرين من صفر غادرنا البر في الصباح الباكر وتقدمنا في اتجاه أعالي النهر ونحن نترقب أن تظهر لنا (دنقلا) - التي قيل لنا أنها مدينة كبيرة- في أي لحظة. وسارت بنا المركب بريح هادئة حتى منتصف الظهر دون أن نرى شيئاً سوى أرضاً خصبة مثل تلك التي مررنا بها بالأمس. وعندما نزلنا من المركب وسألنا الناس عن: أين دنقلا؟ قالوا لنا: إنكم الآن في دنقلا (يعنون إقليم دنقلا) وعندما سألناهم عن المدينة، أشاروا إلى قرية كبيرة بدت من بعيد على الشاطئ الغربي للنهر قائلين أن اسماها هو (دنقلا الجديدة) [1] أما (دنقلا القديمة) [2](١٩) فعلى مسافة

(١) كان هذا الموقع - قبل وصولنا- ملجأ للمماليك. وكان يسمى إلى وقت قريب "دنقلا أوردي" أو(دنقلا العرضي) ويطلق عليه اليوم (دنقلا) عاصمة الولاية الشمالية للسودان - المترجم.

(٢) أي (دنقلا العجوز) ويطلق عليها اليوم: (القدار) - المترجم.

بأعالي النهر. وأخبرونا أن الباشا قد خلف هنا حرساً من أربعة وعشرين جندياً، وتقدم بجيشه جنوباً مسيرة ثلاثة أيام، فصممنا أن نواصل السير حتى ندرك معسكرة.

رأينا - اليوم - لأول مرة مركباً شراعياً صغيراً تم صنعه محلياً بطريقة بدائية جعلته يبدو لنا كقارب خشي. وكان النهر يبدو لنا في بعض الأنحاء - التي مررنا بها اليوم - بعرض ثلاثة أميال من الضفة إلى الضفة، لكنه كان ضحلاً. أما الجزر والشواطئ فقد كانت على نحو ما رأينا بالأمس من خضرة مترفة.

اشتريت حملاً عمره ثلاثة أسابيع كانت أمه بقامة عجل عمره شهران. وهذه النوعية من الضأن ذات شعر ولا يكسو جلدها صوف، وكان حجم كليتي ذلك الحمل كبيراً بحيث يغطي راحة اليدين بالرغم من أن هذا الحيوان- بلا شك - لا يعاني من حالة مرضية.

في الخامس والعشرين من صفر، أبحرنا بعد الشروق وتقدمنا إلى أعالي النهر تدفعنا ريح طيبة استمرت طوال اليوم وحملتنا إلى مسافة ثلاثين ميلاً إلى الأمام. ولم تكن المنطقة التي مررنا بها - اليوم - غنية بالخضرة كما رأينا بالأمس. فقد امتدت تلال صحراوية إلى حافة الشاطئ في أماكن عديدة، ورأينا قرى كثيرة غير أننا - خلال اليومين الأخيرين - افتقدنا منظر القلاع التي غلبت على منطقة أسفل النهر. وبعد ساعة ونصف الساعة - عقب مبارحتنا للبر - مررنا بمدينة محصنة على الشاطئ الغربي

للنهر كانت تبدو كومة من الخراب. وعندما أرسينا مركبنا ليلاً تمكنا من الحصول على بعض المؤن التي لم تتعد الحليب والخضر، التي جاد بها الأهالي بلا مقابل سوى مقادير من الدقيق. وعندما وافقنا على الشرط، جاءونا بكميات من الحليب والخضر، وأخبرونا بأن هناك مدينة يقال لها: (دنقلا) تتكون من ثلاثمائة منزل، تقع على مسافة تقدر بمسيرة يومين من هذا المكان، كما أخبرونا أن الباشا كان يعسكر على مسيرة ثلاثة أيام من دنقلا.

وفي السادس والعشرين من صفر، بارحنا الشاطئ صباحاً بعيد شروق الشمس وواصلنا الرحلة. وبدت لنا المنطقة التي مررنا بها – على الضفة الغربية – ذات خضرة لكن الصحراء كانت تقترب من الضفة الشرقية طوال سفرنا ذلك اليوم.

ثم مررنا على مدينتين أثريتين حصينتين – على الضفة اليسرى للنهر – كانتا حطاماً. وقبل ساعة من المغيب أرسينا المركب إلى الضفة الغربية حيث رأينا أرضاً خصبة اكتست بخضرة الحقول. وقال لنا الأهالي الذين يفلحون تلك الأرض إنهم جاءوها منذ عام بعد أن غرقت الجزيرة التي كانوا يقطنون وأتلفت مياه الفيضان محصولاتهم الزراعية.

وفي السابع والعشرين من صفر، أحرزنا تقدماً بسيطاً في مسيرة الإبحار نسبة لهدوء الريح لما يزيد عن نصف اليوم. . كانت المنطقة التي رأينا تشبه تلك التي مررنا عليها بالأمس.

وفي الثامن والعشرين من الشهر، بقينا عند الشاطئ سحابة يومنا ذاك حيث بدت لنا البلاد - الواقعة على الشاطئ الغربي للنهر - بهية لكنها مهجورة، وكان بعض رفاقنا - الذين قصدوا البر بحثا عن زاد - قد أفادونا عندما عادوا مساء - أنهم شاهدوا حطام معبد يحتوي على أعمدة من حجارة الجرانيت السوداء. فصممت - في حالة هبوب ريح غير مواتية في هذا الصباح - أن أزور موقع المعبد. وأضاف رفاقنا أنهم التقوا بجماعة من خمسة عشر رجلاً مسلحاً أخبروهم بأنهم ينتمون إلى هذه الناحية غير أنهم أجبروا على هجرها وفروا من قطاع الطرق الشايقية الذين أغاروا على منطقتهم وخربوها. وعندما سمعوا بأن الباشا إسماعيل قد هزم هؤلاء النهابين وأجلاهم عن المنطقة، ودعا كل الأهالي الفارين للعودة إلى بلادهم مؤكداً لهم الأمن والحماية. . عندما تيقنوا من ذلك رجعوا إلى مواطنهم مطمئنين.

في هذا المساء أزعجنا سماع طلقات نارية كانت صادرة من الضفة الغربية للنهر. وقد علمنا أن بعض قطاع الطرق كانوا لا يزالون يترصدون ضحاياهم في هذه المنطقة، فجعلنا أسلحتنا على أهبة الاستعداد تحسباً لأي هجوم، إلا أن الليلة مرت بسلام.

وفي التاسع والعشرين من صفر انطلقنا في الصباح الباكر تدفعنا ريح طيبة في اتجاه (دنقلا) التي قيل لنا أنها تبعد مسيرة نصف يوم من حيث كنا. . وواصلنا تقدمنا دون أن نرى تغييراً في طبيعة المنطقة التي مررنا بها.

وفي الثلاثين من صفر، قطعنا مسافة قصيرة نسبة لخفة الريح، و لم يدركنا الظهر إلا ونحن نلوذ بالشاطئ الغربي للنهر إذ أن الشاطئ الآخر بدأ لنا خال من السكان في وقت احتجنا فيه للزاد.

إن البلاد التي رأيناها اليوم كانت تتميز بجمال أخاذ وتحفها أشجار كثيفة غير أنها كانت قليلة السكان. وكان المكان الذي نزلنا فيه – على كل حال – مخضراً بالزرع الذي بذرته أياد خبيرة، أما الأراضي التي لم تمتد إليها يد الفلاح فقد غطتها أشجار قصيرة وشجيرات ومساحة من العشب الكثيف. وكان من الصعب التعرف على مساكن الأهالي لأنها لم تكن سوى عرائش بدائية قائمة في وسط الأشجار والأعشاب الكثيفة.

وكان حريا بنا أن نتعجب كيف أن بلداً بهذا الثراء الطبيعي لا يسكنها إلا قليل من الناس أما أراضيها الخصبة فلا تفلح إلا بإهمال. وعلى كل حال فإن السكان كانوا يزرعون ما يكفيهم و لم يكونوا يتطلعون إلى ما فوق ذلك من مباهج الحياة.

كانت نقودنا – بالنسبة إليهم– لا قيمة لها لأنها لا تشتري شيئاً. غير أن الدقيق المصري يمكن أن يجلب منهم ما يفيض عن حاجتهم من غذاء.

وفي غرة ربيع الأول – وعند شروق الشمس – بارحنا الشاطئ تدفعنا ريح قوية رائقة.

وبعد ساعتين مررنا – كما بدا لنا– بخرائب مدينة حصينة قائمة على مرتفع من الأرض بالضفة الشرقية للنهر. وبعد ذلك – بقليل – توجهنا

إلى الضفة الغربية للنهر حين اشتدت الريح إذ أن الشاطئ الشرقي – المقابل للمدينة التي سبق ذكرها – كان ضحلاً بحيث يتعذر الوصول إلى بره. وقد دفعت الريح العاصفة المركب إلى نقطة ضحلة فغاصت في الرمل عند فوهة أحد الممرات المائية (وهو الممر الوحيد الذي رأيت منذ شهر.) وبعد جهد استمر لمدة ساعة، استطاع البحارة أن ينتشلوا المركب ويسحبونها إلى صفحة الماء. وبعد حلول الظهر – بساعة – هدأت الريح فواصل المركب إبحاره مستعينا بشراعه الأمامي وحده. فأندفعنا بسرعة هائلة إلى ما قبل الغروب بساعة، ثم توقفنا عند الشاطئ الشرقي للنهر.

الفصل الثاني

من (دنقلا) إلى (بربر)

الفصل الثاني
من (دنقلا) إلى (بربر)

أخبرنا الأهالي أننا قد تجاوزنا (دنقلا). وقد تحقق لنا - من خلال وصفهم للمدينة - أنها هي التي رأيناها هذا الصباح فوق المرتفع الماثل على الضفة الشرقية للنهر ولابد أنها كانت هي المكان الذي نقصد. وقال لنا الأهالي - أيضاً - إن كل المراكب التي تقدمتنا قد تبعت مسيرة جيش الباشا الذي كان يعسكر على مسافة تقدر بمسيرة يومين من حيث كنا. لذلك قررنا التقدم للحاق بالباشا لا الرجوع إلى (دنقلا) التي - ربما - كنا سنتلقى فيها أوامر بعدم التوقف عندها.

كانت البلاد التي رأيناها اليوم أقل خصوبة من تلك التي مررنا عليها خلال أيام عديدة فائتة، فقد اختلط الرمل بأرضها في بعض الأماكن.

في الثاني من ربيع الأول حققنا تقدماً عظيماً حيث أن الريح كانت قوية جداً إلى وقت المغيب. وتوقفنا بالبر مساء عند جزيرة خضراء واسعة، خصبة، لاحظت - هنا - على بعد مسافة مقدرة من حيث نزلنا، أعمدة ضخمة شامخة تقوم - كم تراءت لي - على البر الشرقي للنهر.

كانت البلاد التي مررنا عليها اليوم - والتي امتدت إلى مسافة عشرة أميال على طول الضفة الشرقية للنهر عبر سهل من الرمال - جميلة. وعلى كل حال فقد كانت المنطقة التي عبرناها - خلال فترة ما بعد الظهر -

على الضفتين لا تضاهيها خصوبة أي بقعة من العالم.

واتضح لنا - من خلال - السواقي العديدة ومزارع الذرة والقطن. أن هذه المنطقة الجميلة يتعهدها بالفلاحة عدد مقدر من السكان. وظل المنظر على حاله (سهول واسعة خصبة تمتد إلى خط الأفق وتتقاطع مع منعرجات نهر النيل) ولم تقع أبصارنا على مرتفعات يؤبه لها عدة أيام فيما عدا ذلك المرتفع الذي تقوم عليه مدينة (دنقلا) التي مررنا عليها بالأمس. . إنها موقع عسكري ممتاز.

في الثالث من ربيع الأول، كانت الريح تهب في اتجاه إبحارنا تبعاً لحقيقة غريبة وهي أن النيل - هنا - ينحرف بطريقة شاذة نحو اليسار (أي نحو الشمال الشرقي) فيبدو وكأنه قادم من تلك الناحية بدلا عن كونه آت من الجنوب أو الجنوب الغربي. وحاول (الرئيس) التقدم عن طريق جر المركب بالحبال، إلا أن البحارة لم يتمكنوا من اجتياز سوى ميلين أو ثلاثة على امتداد حافة الجزيرة (نظراً لقوة الريح) ولذلك فقد كان لزاما علينا أن نقضي جزءً كبيراً من هذا اليوم وكل الليل بالشاطئ. . كانت جزيرة جميلة تمتد إلى عشرين ميلاً وتسمى - كما ذكروا لي مراراً - «أرقو».

في الرابع من هذا الشهر التزمنا المسير بمحاذاة الشاطئ حتى الظهر - حين ضعفت الريح - فسارت المركب ميلين بمعاونة حبال السحب حتى وصلت إلى أحد المنعرجات حيث انقلبت الريح - قليلاً - لصالحنا. وإذا ما استمرت حالة الريح - هكذا - حتى الغد فيمكن أن نستفيد من هذا

الوضع لنستمر في التقدم. وقد وصلنا إلى هذا الموقع قبيل غروب الشمس وقضينا ليلتنا فيه. وبينما كانت المركب راسية على الشاطئ الأيسر للنهر - اليوم - حيث دفعتنا الريح إليه، ظهرت لنا خرائب مدينة أثرية حصينة كانت مبانيها من الحجر وتحيط بها مقابر على مساحة واسعة. ورأينا بين الركام أعمدة حجرية ضخمة يمتزج فيها اللونان الأحمر والأبيض.

كانت إحدى المقابر - بالتأكيد - تنتمي إلى زمان غابر لأن حيطان الأضرحة كانت تحمل نقوشات هيروغلوفية ورسومات. وقد جاء أحد البحارة من أحد الأضرحة ببقايا مومياء.

في الخامس من الشهر أحرزنا تقدماً محدوداً نظراً للمنعرجات التي تشكل مجرى النهر والتي سبقت الإشارة إليها. ومررنا ببعض الجزر الصغيرة الجميلة حيث ظهرت لنا - لأول مرة منذ أيام - جبال حجرية على البعد. ورأينا شواطئ النهر - هنا - ذات خصوبة غير أنها قليلة السكان، كما رأينا العديد من القرى الكبيرة المخربة.

وفي السادس من الشهر حتم علينا هبوب الريح في اتجاه النهر - مرة أخرى - أن نسحب المركب بالحبال أميالاً قليلة. وفي منتصف الظهر وصلنا إلى موقع على الضفة اليسرى للنهر دارت فيه معركة - قبل أيام - بين الباشا وعصابات الشايقية. ووقفنا - هناك - على حصن حصين قائم على الحافة القصوى لجبل عال يمتد بعيداً في اتجاه الصحراء ويرسم زاوية قائمة مع مجرى النهر وبذلك يتيح موقعاً دفاعياً فريداً لتلك العصابات.

وقد تم اقتحام هذا الحصن بمساندة مدفعية الباشا ثم تقدم الخيالة وشتتوا شمل الذين كانوا يقاتلون من داخله. والمدهش أن هذا الحصن كان – من الداخل – مجهزاً تجهيزاً جيداً يفي بحاجة حامية عسكرية.

ضمت المنطقة عدداً كبيراً من القرى التي كانت تزرع الذرة واللوبيا والقطن. وقد تم نهب هذه القرى وخرب بعضها بواسطة الجنود المنتصرين لأن سكانها – بدلاً عن أن يأتوا إلى الباشا مستسلمين كما فعل أمثالهم في مناطق أدنى النهر – رفعوا السلاح مؤازرة لقادة العصابات الذين كانوا يسيطرون على المنطقة. غير أننا علمنا أنهم فعلوا ذلك مرغمين. وقد علمت اليوم أن إثنين من الرحالة الانجليز كانا يستقلان إحدى المراكب المتقدمة، فقررت أن أسير إليهما زائراً إذا لم تهب علينا ريح مواتية غداً.

وفي السابع من الشهر انطلقنا في الصباح الباكر وقد خيم على الجو السكون والذي – تبعاً لذلك – لا يمكن المركب من التقدم إلا بجرها. وكان هدفنا أن نلحق بالانجليزيين ونقف على أحوالهما لأنني كنت أخشى أن يكونا مثلنا قد تعرضا لحالة العوز والحاجة. فبعد مسيرة ساعتين على الأقدام أدركت المركب الذي اعتلاه الرجلان، فأخبراني أنهما قد غادرا القاهرة بعد أيام قليلة من مغادرتنا (بولاق) وإنهما يعانيان من بؤس الحال كما يعاني رفاقهما الآخرون في المراكب الأخرى. فعبرت لهما عن أسفي لعجزي عن مساعدتهما لأنني كنت أشكو مما يشكيان منه. وبما أنه قد تأكد لنا أن معسكر الباشا ليس بعيداً من مكاننا، فقد كان بوسعي أن

أؤكد لهما أن أحوالهما ستتحسن في غضون يوم أو يومين (والرجلان هما وادنقتون وهنري).

وخلال مسيرتي نحو مركبهم وحتى ساعة رجوعي إلى مركبنا، رأيت مئات الأجساد البشرية والحيوانات التي أهلكتها المعارك الأخيرة وحملات الملاحقة. وكانت الروائح النتنة تملأ الجو. غير أن المنطقة امتلأت أيضا بحقول الذرة الناضجة وبالسواقي البكماء - كما امتلأت الأحواض بالدماء وبالجثث المتعفنة.

وفي اليوم الثامن من هذا الشهر، قضينا الليل داخل المركب حيث توقفنا قرب الجبل الذي أسلفنا ذكره في يومية أمس الأول. وقد ادعى اثنان من الأغاريق - ممن كانوا على ظهر مركبنا - أنهما سمعا - ليلة الأمس - صيحات تهديد صادرة من جهة الجبل. فظن الركاب أن بعض العصابات قد أخذت تستعد لمهاجمة مركبنا عندما يجن الليل، وتبعاً لذلك ظللنا ساهرين حتى الصباح. غير أن أحداً لم يهاجمنا. وفي هذا الصباح وبعد شروق الشمس بساعتين، إدعى الإغريقيان - نفساهما - رؤية خمسة عشر أو ستة عشر من قطاع الطرق رأي العين. وقالا - أيضا - للجنود المغاربة الذين كانوا على ظهور المراكب الأخرى (التي لحقت بنا) إن قطاع الطرق - هؤلاء - هم الذين يحتمل أن يكونوا قد قتلوا جندياً من جنودي واثنين من خدمي الذين انقطع خبرهما منذ الصباح فانطلقت وفي صحبتي عشرون من الجنود المغاربة لإدراك أولئك القتلة

غير أننا لم نتقدم إلا قليلا حتى لاح لنا رجالنا المفقودون وهم في طريقهم إلى مركبنا سالمين. وأخبرونا أنهم لم يروا مسلحين بالرغم من أنهم جاءوا من الجهة التي ادعى الإغريقيان إنهما رأيا من قبلها عصابة قطاع الطرق. فعدت إلى المركب وأنا استرجع المثل القائل: (إغريقي وكذاب!)

لم يكن الجنود المغاربة على اقتناع بكذب ادعاء الإغريقيان، فواصلوا السير تجاه الجبل، غير أنهم لم يجدوا أحداً من قطاع الطرق. ولتبرير حملتهم الفاشلة، قاموا بسبي فتاة مليحة وجاءوا بها إلى المركب. وبعد أن تقدمنا أميالاً قليلة - ونحن نسحب المركب بالحبال - توقفنا عند الشاطئ ساعة المغيب في قرية على الضفة اليسرى للنهر. ورأينا - هنا - خرائب لكنيسة قديمة مشيدة على الطراز الإغريقي كان احد أعمدتها من الجرانيت الأحمر ولم يكن عالي الارتفاع.

ولاحظنا فوق العمود رسما لصليب ونجمة. كما رأينا أعمدة أخرى على الأرض أصابها شئ من التلف.

وجد الجنود في القرى القريبة مئات عديدة من النساء وحوالي مائتي رجل. وكان هؤلاء من المزارعين الذين لجأوا إلى هذه الناحية أثناء احتدام المعركة بين عصابات النهب وجيش الباشا. ولولا أنهم حصلوا على أمان مكتوب من الباشا - يستظلون بحمايته - لفتك بهم الجنود.

وكانت العادة أن يمنح الأمان للقرى المسالمة حتى تسلم من شر أولئك الجنود.

بقينا هنا كل الليل في هذه المنطقة من بلاد الشايقية التي تتحكم فيها عصاباتهم، إنها بلاد يانعة الزرع. . وتروي بالسواقي المنتشرة على طول ضفة النهر. إذ أن الشايقية يلزمون الزراع بالعمل الدؤوب لتوفير الغذاء والعلف الذي يملأ مخازن الحصون التي ترى هنا وهناك على امتداد هذه المنطقة.

وفي التاسع من الشهر ظلت حالة الريح كما هي وظل اتجاه النهر كما هو مما فرض علينا أن نواصل سحب المركب بالحبال. واستمرت المناظر الطبيعية والأراضي الخضراء والجزر العديدة الواسعة والجميلة تترى على أبصارنا. فخرجت أمشي على الشاطئ فرأيت – على البعد – حصنا ضخما احتلته – مؤخراً – عصابات الشايقية. وعندما وصلت اليه تبين لي أنه قابل لاستيعاب ما لا يقل عن ألف من الرجال. وكانت جدرانه وأبراجه سميكة للغاية ومجهزة بفتحات للرمي. غير أن مدفعية الباشا دكتها ثم أضرم الجنود النار في كل شئ فيها قابل للاشتعال. وبعد مسيرة أميال قليلة من هذا الحصن، توقفت المركب لقضاء الليل.

وفي اليوم العاشر – ومع إسفار الصباح – أسعدني سماع ثلاث طلقات من مدفع مما يعني أننا قد اقتربنا من المعسكر. وظل منظر البلاد – كما رأينا في اليومين الماضيين – حقولا خضراء لم نر مثيلا لها في كل البلاد التي مررنا عليها جنوبي مصر، وقرى هجرها أهلها. وبقدر ما كنت حانقاً على رؤية هذه البلاد الجميلة بلا سكان، سرني أن علمت أن

عدداً كبيراً من الفلاحين ومعهم زوجاتهم وأطفالهم كانوا في طريقهم إلى حقولهم وديارهم (تحت حماية جنود المعسكر) وفي معيتهم (فرمان) من إسماعيل باشا يؤمنهم ويحميهم. ويؤسفني أن أقول أن أولئك الفلاحين كانوا - حقيقة - بحاجة إلى حماية، لأن الجنود (الذين كانوا يستقلون المراكب) أباحوا لأنفسهم البطش بالفلاحين باعتبار أنهم كانوا عوناً لعصابات النهب المندحرة. ففي هذا الصباح تعرض شخصان من أولئك القرويين إلى ضرب مبرح كما تعرضت زوجاتهم وأخواتهم إلى انتهاكات من قبل جنود المراكب. وعند الظهر اقتحم أحد جنودنا تلك القرية وفي صحبته أحد الأغاريق الذين (ذكروا آنفاً) ومعه طباخ الطبيب - دون علمي - بغرض ممارسة انتهاكات غير إنسانية، إلا إنهم فوجئوا وإمتلأوا رعباً عند وصولهم إلى القرية. فقد وجدوا أنفسهم محاطين بحوالي مائتين من الفلاحين المسلحين بالهراوات يأمرونهم بالرجوع - فوراً - إلى مراكبهم. ولم يكن أمامهم إلا أن يرجعوا من الغنيمة بالإياب، فعادوا إلى المركب في اضطراب وفزع، مما دفعني لأفرغ في وجوههم كل ما في جعبتي من الشتائم، أولاً لسبب نذالتهم وثانياً لجبنهم إذ أنهم فروا (وكانوا يحملون أسلحة نارية) أمام حملة الهراوات. وعندما توقفنا في المساء، علمنا أننا على بعد مسيرة ثلاث ساعات من المعسكر.

وفي الحادي عشر من الشهر، واصلنا جر المركب بالحبال فمررنا ببلاد جميلة جيدة الفلاحة لكنها مهجورة. ورأينا المئات من حصائر الأهالي

(التي تضارع ما يعرض للبيع في أسواق القاهرة) ملقاة على الأرض بعد أن بات عليها الجنود الذين كانوا يطاردون رجال العصابات عقب المعركة الأخيرة. كما أن الجنود صنعوا أكواخاً من الحصائر ذات الإبعاد الواسعة ليستظلوا بها. وإلى جانب هذه المفروشات تناثرت أدوات الأهالي المنزلية في كل اتجاه. وقد كانت نباتات الحقول تتمايل في مهب الريح بينما لاذت السواقي بصمت مطبق.

ومررنا بحصون عديدة ضخمة كانت تحرسها قوات شرسة وتسيطر على الأهالي وتستعبدهم. وقد وجدنا في أحد هذه الحصون المهجورة بقايا صحون من الصيني مهشمة وأوعية من المرمر وخزائن من الخشب الهندي المصقول (الصندل) وبضائع (ربما سلبتها العصابات من بعض القوافل) ومدفع نحاس صغير. ورأينا على جدران غرف الحصن حصائر ملونة ذات سعة وذوق، ويدل شكلها على ما بذل في صنعها من صبر وأناة.

وبعد الظهر بساعة التقينا بأعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال يسوقون ماشيتهم عائدين إلى ديارهم - التي كانوا قد هجروها - بعد أن أمنهم الباشا وبسط عليهم حمايته. . كان مؤثراً أن ترى أولئك النساء البائسات وهن يحملن أطفالهن العرايا على أكتافهن أو أحضانهن أو يسحبنهم سيرا على الأقدام. لقد شعرت بسعادة مما أسبغه إسماعيل باشا على هؤلاء الناس من نعمة السلام، غير أن سلوك بعض جنوده المغاربة

وبعض الإغريق والفرنجة الملحقين بخدمة الجيش - الذين كانوا يسلبون من هؤلاء المخلوقات البائسة: الغنم والضأن - قد محا اللمسة الإنسانية التي رمى إليها الباشا.

وقبيل الغروب بحوالي ساعة، مررنا بمعسكر عابدين كاشف (الذي كان على الشاطئ المقابل). وعند حلول الليل أصبحنا على مبعدة ثلاثة أميال من معسكر الباشا. فتوقفنا لقضاء الليل لأن التعب قد بلغ ببحارة المركب منتهاه.

وفي الثامن عشر من الشهر تقدمنا ببطء مستخدمين الحبال لسحب المركب على مدى ساعتين من بعد الظهر حتى بلغنا معسكر (الخازندار) على الضفة اليسرى للنهر، وعلى الضفة الأخرى قام معسكر الباشا نفسه. لفتت نظري - على مسافة غير بعيدة من معسكر (الخازندار) على الضفة اليسرى - خرائب وعدد من الأهرامات، ونسبة لأنني لم ألحق بالباشا إلا في الصباح، فقد قررت أن أستغل باقي اليوم في زيارة استطلاعية لهذه الآثار التي تقع بالقرب من صخرة [1] عالية ضخمة منعزلة تبعد عن النهر مسافة ميل واحد. وعندما اقتربت من الموقع رأيت في واجهته بقايا معبد ضخم تغطي مساحة واسعة من الأرض. وكانت بعض الأعمدة الحجرية الداكنة- التي غشيتها يد الزمن - تغوص وسط الأنقاض بينما ظهرت قواعد بعضها في تشكيلة تدل على أن صفاً منها كان يتجه إلى مغارة في تلك الصخرة العظيمة السالفة الذكر. ورأيت بين الأنقاض تمثالين كبيرين

(١) جبل البركل.

لأسدين من الجرانيت الأحمر احدهما محطم والآخر لم يتأثر إلا بقليل من الضرر. كما رأيت تمثالاً صغيراً مقطوع الرأس ارتفاعه حوالي قدمين وهو في هيئة الجالس. وعندما اقتربت من واجهة الصخرة رأيت معبدين صغيرين منحوتين في جوفها. كما رأيت نقوشاً ورموزاً - كتلك التي ترى عادة في معابد مصر القديمة - على جدران المعبدين. أما سقفهما ومدخلهما فيحويان آثاراً من طلاء لاذوردي باهت. ويستند المدخل إلى أعمدة في أشكال تماثيل أنثوية والى جانبها تماثيل ضخمة لاسود منتصبة على أرجلها الخلفية. وبدأ لي أن الحطام الأثري الذي يحتل واجهة الصخرة كان يوماً ما معبداً ضخماً تجاوره تلك الأهرامات المذكورة التي أحصيت منها سبعة عشر (بعضها حطام وبعضها بحالة جيدة إلا أنه صغير الحجم وذو ارتفاع مقدر.) أما جوانب تلك الأهرامات فتشبه الدرج ذا الانحدار الحاد وأما زواياها فمزخرفة بنوع من النقوش المعمارية البارزة، وبناؤها مركب من حجارة من جنس حجارة الصخرة مما يغلب احتمال أن تكون مجلوبة منها. وهناك مبان منخفضة الارتفاع في الجهة الأمامية للأهرامات تشبه المعابد وعلى جدرانها رموز(هيروغلوفية). ويمكن فتح الهرم الذي يجاور المعبد - بجهد قليل - لأن بابه الحجري كان ظاهراً. ومن هذا الموقع يمكن رؤية أهرامات أخرى عديدة على الشاطئ الآخر للنهر، أحدها كبير الحجم. ويسمى سكان الناحية هذا المكان الذي قمت بزيارته: (مروي)[1] ويطلقون نفس الاسم على المنطقة الأثرية بأسرها.

(١) لا علاقة لاسم هذه المدينة بمملكة مروي التي عرفت في منطقة شندي تجاه أعالي النهر.

إن الآثار التي سبق أن أشرت إليها، لا يبدو أن يد العبث قد امتدت إليها. ولا شك عندي أن العديد منها ما يزال تحت الأنقاض التي تغطي مساحة واسعة من الأرض.

إن بعد هذه المنطقة الأثرية عن النيل والغطاء الذي تنشره رمال الصحراء عليها يثير قضية احتمال أن يكون هناك مزيد من الآثار المدفونة فيها.

إن نهر النيل يعتبر - كما اعتبره أنا حقاً - أحد عجائب الدنيا. ولا أظن أنه اكتسب هذه الصفة من فيضانه الموسمي المنتظم بقدر ما اكتسبها من حقيقة أخرى- وفق علمي الشخصي - لا يشاركه فيها نهر آخر. فمجرى النيل يشبه مسيرة رجل صالح عبر عالم من الفسقة والتافهين. إنه يجري خلال صحراء ويغذيها بانتظام. ولقد غدت هذه التربة مصدر الحياة والقوة لأمم عديدة أنشأت وأزالت ممالك عظيمة وأبدعت الفنون والديانات والمعرفة والحضارة التي عرفها الجزء الأكبر من العالم القديم. ولقد اندثرت هذه الأمم - المعلم منها والمتعلم- إلا أن آثار مجدها المتمثلة في أهرامات ومعابد مصر والنوبة وغيرها، تثير - بما فيه الكفاية- من الدهشة وتشحذ الاحترام للذين قاموا بتشييدها. وإن الأمثلة القليلة التي أشرت إليها لا تتجاوز ما أتيح لي أن أقف عليه أثناء إبحاري إلى أعالي النهر، إذ أن الظروف لم تهيئ لي أن أفحص تلك الآثار بتمعن. ولا ريب أن الوقت والإمكانات لإجراء أي نوع من الأبحاث في تلك الناحية لم يتوفر لي لاكتشاف المزيد منها. وفي يقيني أن الرحالة الذي سيزور هذه

المناطق البعيدة الشيقة - في المستقبل - والذي تمكنه قواه ووسائله ووقته من أن يجوب الضفاف والجزر التي شاهدتها وأعجبت بها، سيجد من اهتمام المستنيرين وتقدير الفضوليين ما يعوض جهده واجتهاده.

إن رحلة إلى أعالي النيل يمكن أن تتيح فرصة للاطلاع على صفحة من التاريخ الأخلاقي للإنسان فنحن نقف في كل مرحلة على معلم من عقيدته وجبروته. ولكننا لا نجد إلا القليل من الآثار التي تدل على إبداع موجه نحو المنفعة والبناء الحقيقي. كذلك فإننا نرى في كل مكان آثار العقاب الرادع الذي يوقع على المجرمين، ونرى بقايا المدن التي اشتهرت بأمجادها وفخامتها ونقف على حطام المعابد وتماثيل الآلهة التي علاها الغبار.

إن الناس الذين ورثوا ذلك المجد التليد - في هذه المنطقة - لم يعودوا ينتفعون بشئ منه وذلك لأن السكان الحاليين هم خليط من النهابين والرقيق. أما النهابون فقد آل مصيرهم إلى الفرار أو القتل، وأما الأهالي المستضعفين فقد حررتهم إرادة الأمة التي هزمت الإغريق من قبل. غير أن تلك الأمة لم تع الدرس الذي يؤدي إلى سقوط الدول وزوالها من صفحة التاريخ.

إن النيل الذي شهد أمما وأجيالاً عديدة تزول، ما زال يفيض بمائه الخصيب عبر البلاد الممتدة على شاطئيه مثلما يجود الكريم غير آبه بجحود الإنسان وبكفره بنعمة الخالق.

عندما أدركت المعسكر، علمت بتفاصيل المسيرة الظافرة لابن صاحب العزة (محمد علي) منذ غادر (وادي حلفا) إلى أن بلغ (مروي). فقبل أن تتحرك المسيرة كان كل شئ يستسلم ويسقط وباءت بالفشل كل المحاولات لعرقلة مسيرة الحملة وإيقافها. . كانت الحملة أشبه باندفاع النيل الجارف الذي تحاول صخور الشلالات القاسية أن تعترض سبيله.

لقد تحرك سعادته من (وادي حلفا) في ٢٦ ذي الحجة فوصل - بعد مسيرة متواصلة - إلى (دنقلا الجديدة). وعلى مقربة من هذه القرية خرج (السلحدار) في قوة من أربعمائة رجل وفاجأ ألفاً وخمسمائة من الأعداء فشتت شملهم وغنم الكثير من خيولهم وجمالهم. وعلى مسيرة أربعة أيام قبل الوصول إلى (دنقلا الجديدة) التقى الباشا - الذي كان في مقدمة الجيش - بالقوة الرئيسية للشايقية وحلفائهم عند جبل بالقرب من قرية يقال لها (كورتي) على الضفة الغربية للنهر. . كان الباشا يقود ستمائة من الخيالة وبعض رجال العبابدة الراكبين على الجمال، ولم يكن مع الباشا أي من مدافعه. فتقدم العدو في اندفاع هائل تسنده صيحات الحرب المدوية.

ولم يستطع العبابدة صد الهجوم فتراجعوا إلى الخلف. في هذه اللحظة الحرجة أصدر صاحب السعادة أوامره للخيالة فأطلقوا النار من بنادقهم ومسدساتهم. وكانت ضحكات إسماعيل باشا العالية- وهو يشق طريقه وسط الأعداء في أول معركة - تسمع بوضوح. وبعد وقت قصير فر فرسان العدو، أما الذين كانوا يقاتلون راجلين فقد انكبوا على وجوههم وألقوا

دروعهم على رؤوسهم تأميناً لها من حوافر الخيل وأخذوا يطلبون الرحمة.

أدت نتيجة هذه المعركة إلى استسلام وتأمين كل المنطقة الواقعة بين ميدان المعركة وبلاد الشايقية(أي المنطقة التي تتناثر فوقها حصون الشايقية ويقطنها رعايا ملوكهم.) وواصل الباشا تقدمه في بلاد الشايقية حيث جمع الملك (شاويش) كل قوة قطاع الطرق في محاولة لمنازلة أخرى. وأبصر الباشا جزءاً من القوة في جزيرة تحاذي جبلاً ممتداً يقال له (جبل التكر) فأرسل المراكب لمهاجمتهم. فمزقتهم شر ممزق وألقت بهم في النهر. ثم ألتفت الجيش للقوة الكبرى للعدو التي تمترست في الجبل الذي كان يشكل زاوية قائمة مع مجرى النهر ويفصله عن سهل عرضه ربع ميل تغطية سيقان الذرة. وكان العدو يتمركز على جانب الجبل وفي حقول الذرة بينما كانت مؤخرته تحتمي بالجبل ذاته. أما ميمنة العدو فقد كانت تتحصن في نقطة دفاعية عند سفحه الأقصى. وقد تكون فرسان العدو من: الملك «شاويش» والملك «صبير» وشيوخ الشايقية الآخرين وتوابعهم المباشرين وكان منظرهم يكلل صفحة الجبل بلون داكن أما سلاحهم فقد كان من الرماح والدروع والسيوف.

اصطف القطاع الأكبر من جيش الشايقية - والذي تكون من البسطاء الراجلين الذين يشكلون دروعاً بشرية - في الواجهة، بينما اعتل «شاويش» والفرسان صهوات الجياد وأخذوا مكانهم في المؤخرة ليتسنى لهم - إذا اقتضى الحال - الفرار.

أما قوات الباشا فقد تقدمها فرسان المقدمة ورجال المدفعية.

.. اندفع العدو نحو جيش الباشا في زوبعة من صيحات الحرب والرماح المشرعة وقذف بعضهم بأنفسهم تجاه المدافع التي نسفتهم نسفاً. وقصفت المدافع الحصن الأيمن لقوات العدو. وعندما تيقن فرسان العدو من ضراوة آثار المدفعية عليهم، فروا تاركين مشاتهم تحت رحمة فرساننا الذين أبادوا [١] المئات منهم أثناء المعركة وما تلاها من تعقب للفارين، أما الملك (شاويش) وفرسانه فلم يتوقفوا إلا عند منطقة (شندي) وقد خلفوا ورائهم حصونهم المنيعة العديدة وقراهم وأراضيهم الخصبة البديعة لقمة سائغة للغزاة. [٢]

وفي الثاني عشر من شهر (ربيع الثاني)، توجهت إلى مخيم الباشا - بدعوة من سعادته - حيث تمكنت من الانفراد به بعد أن سمح لي بالجلوس في حضرته [٣]. وبعد أن عبرت عن تحياتي وشكري، أعلمت سعادته بما أصاب بصري قبل أن يغادر جيشه (وادي حلفا) مما حرمني من مرافقة حملته المظفرة والمشاركة في انتصارات الجيش التي لم يتبق منها ما يمكنني أن أساهم فيه. فرد على سعادته قائلاً: (إن هناك الكثير

---

(١) أخبرني الجنود أنهم كانوا يفرغون خزائن أسلحتهم في الرجل الواحد من مقاتلي الشايقية قبل أن يقع صريعاً.

(٢) عندما اقترب جنودنا من حصن الملك (صبير) هربت ابنته ذات الخمسة عشر ربيعاً مخلفة من ورائها فردة من حذائها (الصندل) الذي تضارع صناعته أرقى ما تنتجه أوربا من أحذية. . أخذت الفتاة أسيرة إلى الباشا الذي ألبسها أفخر الثياب التركية وأعادها إلى أبيها لتحثه على الاستسلام بحجة أن ذلك يكسبه صداقة الرجال الشجعان لا عداوتهم. وعندما وصلت الفتاة إلى معسكر (صبير)، كان أول الأسئلة التي وجهها إليها: (يا بنيتي، هل عدت إلى أبيك دون أن تفقدي شرفك؟ فأجابت الفتاة قائلة: (بلى وهل كنت أجرأ أن أرفع رأسي لو جلبت لك العار؟ لقد عاملني الباشا كما لو كنت إحدى بناته وألبسني هذا الذي ترى. وهو يرغب في أن يسود السلام معك. فتأثر (صبير) بمقال أبنته وحاول مراراً أن يقيم سلاماً مع الباشا إلا أن رغبته اصطدمت بعناد رؤساء الشايقية الآخرين.

(٣) هنالك قليلون في المعسكر ممن حظي بهذا الإمتياز.

الذي ينتظر أن ينجز وأن الفرصة متاحة لك كي تشارك في ذلك الانجاز).
وبعد أن شكرت سعادته على ما قال، طلبت خيلاً وجمالاً لي وللجنود الذين جئت بهم فأجابني بقوله: (ستعطي سؤلك). وبعد حديث اتسم بالخصوصية سمح سعادته لي بالانصراف.

وخلال الأيام التسعة التالية اتضح لي ما يستوجب الثناء على إنسانية وحسن سياسة الباشا من خلال منحه العفو والأمان لكل عصابات النهب التي تأتي رافعة راية الخضوع والاستسلام. فقد جاءه ملوك الشايقية ومواليهم مسالمين عندما عسكر الجيش قريباً من (مروي). فخلع عليهم سعادته حللاً فاخرة وكتب لهم أماناً يجعلهم من رعاياه. وعندما رجعوا لبلادهم - هم ومواليهم - كانت الغبطة ومشاعر الرضا تملأ جوانحهم. . ومن جهة أخرى فُرضت على الجنود تعليمات صارمة تقضي بألا يتعرض الأهالي للعنف بسبب نزول الجيش في بلادهم. وقد عوقب بعض الجنود وبعض الأهالي بالجلد لأنهم استولوا على رؤوس من الضان والغنم لم يدفعوا قيمتها، كما أن خمسة من العبابدة قد عوقبوا (بالخازوق) لأنهم سرقوا جمالاً من الأهالي. لقد كان شرفاً حقاً للجيش ولقائده أن يُرى سكان القرى من الرجال والنساء والولدان يزاولون حياتهم الطبيعية دون أن يعكر صفوها ضيق أو خوف.

وفي الحادي والعشرين من هذا الشهر غادرت المعسكر كتيبة مكونة من ثلاثمائة من الخيالة إلى بلاد البرابرة [1] لإخضاعها وللحصول على

(١) النسبة إلى منطقة (بربر) - المترجم.

خيول وجمال للجيش الغازي. ولعلمي أن الباشا ينوي الزحف بجيشه خلال أيام قليلة ثم يقيم معسكره على مسيرة ثماني ساعات في اتجاه أعالي النهر، فقد أردت أن استوثق من تلبيته رغبتي في الحصول على الخيول والجمال التي وعدني بها قبل أن يتحرك الجيش فكانت إجابته انه لا يملك جمالاً يمكن الاستغناء عنها حالياً لكنه يعد بتلبية رغبتي حال توفر العدد الكافي منها. وتبعاً لهذا الوضع فقد استوجب الحال أن استغل مركباً لمواكبة مسيرة الجيش إذ انه يتعذر على أن أصاحب الحملة براً ما لم أجد من الجمال ما احمل عليه متاعي وخيمتي. وأتاحت لي هذه الظروف فرصة القيام بزيارة للأهرامات التي سبق أن أشرت إليها عند وصولي إلى منطقة (مروي).

تقع هذه الأهرامات على مسافة نصف ميل من الشاطئ الأيمن من النهر وقد أحصيت منها ٢٧ كانت كلها بحالة خربة، ومن المؤكد إنها أقدم من أهرامات (البركل) واسبق من أي هرم مصري. ومن حيث الحجم فإن قاعدة أكبرها قد تصل إلى مائة من الأقدام المربعة أما ارتفاعها فقد يتجاوز هذا الرقم مما يميز بنائها ويلفت إليه النظر. وفوق ذلك فإن هذه الأهرامات قد بنيت بطريقة مزدوجة (أي هرم داخل هرم). وللوصول إلى قمة أي من هذه الأهرامات فإن من السهل الصعود إليها من الجانب المتآكل. وعلى خلاف منطقة أهرامات (البركل) فإن هذه المنطقة التي يطلق عليها الأهالي «الطربول» «والبلل» - لا تحوي أي أثر لمدينة أو بقايا لمعبد.

وفي الثالث والعشرين من الشهر أشرفنا على الطرف الأدنى من المنحدرات المائية للشلال الثالث. وكان علينا أن نبذل من الوقت تسعة وثلاثين يوماً حتى نبلغ جزيرة «كندي» التي لا تبعد عن «مروي» سوى خمسين ميلاً. كما كان علينا أن نسحب المركب - بالحبال عكس التيار بصعوبة وفي مواجهة رياح غير مواتية - بين الجزر والصخور. وكان التيار عنيفاً كأنه يندفع من أنبوب مضخة مما استوجب أن تستخدم عدداً من البحارة يكفي لسحب عشرين مركباً.

وخلال عبورنا بممرات أخرى - حيث كانت المياه شديدة الضحالة - كان من الضروري أن نستعين بقوة البحارة الرئيسية سيراً على الأقدام من (مروي) على الضفة اليمنى للنهر انتظاراً لاجتياز المراكب تلك التيارات المائية. ولم ينخرط الجيش في أي عمل عسكري - حينئذ - سوى إرسال قوة من أربعمائة فارس بقيادة (ديوان أفندي) للحاق بالكتيبة المتمركزة في بربر حيث اتسم الوضع بالهدوء والسلام.

اتصفت منطقة الشلال الثالث [1] بأراض جدباء تتكون من صخور الجرانيت الأسود والرمل فيما عدا بعض الجزر ذات التربة الصالحة للزراعة وخلا مواقع قليلة على الشاطئين يغذيها فيضان النهر بالطمي الخصيب. وتدل الصخور التي تصاحب الشاطئ أن مياه النهر قد ارتفعت إلى حدود عشرين قدماً، عن مستواها الحالي - خلال أحد الفيضانات. كما تدل الملاحظة أن طائر النعام كان يرتاد هذه الناحية.

---

(١) وجد (خليل أغا) الذي جاب الشلال الثالث بكامله في كثير من الجزر، خرائب يحتمل أن تكون لأديرة قديمة نسبة لوجود حجارة عديدة عليها كتابات إغريقية، وقد أعطاني حجراً من تلك الحجارة حملته على جمل وأنا في طريقي إلى سنار إلا أن هذا الجمل نفق مما دفعني للتخلي عن الحجر في وقت لاحق.

لم يسترع انتباهنا أي أثر قديم فوق هذه الشلالات سوى بقايا حصن حصين على الضفة اليمنى للنهر وخلا ما يحتمل أن يكون ديراً مسيحياً على الضفة المقابلة يطلق عليه - كما علمت - (الكنيس) وهو على بعد ثلاثين ميلاً من (مروي). ثم مررنا على جزيرة صغيرة يطلق عليها الأهالي - أيضاً - اسم (مروي) [١] وليس هناك من اثر لمدينة ذات خطر على هذه الجزيرة. وقد أفاد (خليل أغا) الذي طرق الجزيرة سباحة أنه شاهد خرائب لبيوت من الطوب وعديداً من قطع الخزف المهشمة [٢].

وجزيرة (كندي) جزيرة واسعة يفلح الأهالي جزءاً منها وبها آثار لمبان من الطوب وجدنا داخلها شظايا لفخار قديم وخزفيات مهشمة، غير أننا لم نلحظ أثراً لمعمار يؤبه له. وبقينا ثلاثة أيام في الجزء الواقع عند منتصف الجزيرة ثم تلقت المراكب الأوامر في السادس من جمادي الأول بالتحرك إلى الطرف الأدنى لها حتى نتمكن من عبور الممر الأيمن وذلك لأن الممر الأيسر كان ضحلاً. وبقينا في هذا الجزء من الجزيرة حتى الثالث عشر من الشهر لأن كبير البحارة ذهب لفحص آخر ممرات الشلال الثالث. وفي الثالث عشر من الشهر توجه مركبنا(مع مراكب أخرى) إلى الشاطئ الأيمن لكي يسير في الجانب الذي يقربه من معسكر الباشا [٣].

وتلقيت أمراً من الباشا - في نفس اليوم - لمقابلته في المعسكر. فذهبت

---

(١) اختلط الأمر علي الكاتب فهذه الجزيرة تسمى (مِرْوي) بكسر الميم وسكون الراء - المترجم.

(٢) عند عودتي إلى مصر قدمت عينات وافرة من هذه القطع الأثرية للسيد صولت (القنصل البريطاني) حيث لا يزال محتفظاً بها.

(٣) تمركزت كل القوات الغازية في المعسكر.

إلى سعادته حيث أعلمني بقراره القاضي بأن التحق بالمعسكر وأنه سوف يهيئ لي فوراً الوسائل التي ستمكنني من مرافقة الحملة إلى بربر عبر الصحراء. [١] وبعد خمسة أيام أصدر الباشا أوامره بالتحرك وتقدم إلى مسافة أربع عقد حيث كانت المراكب الكبيرة متوقفة بسبب ضحالة المياه. ووصلت إلى هذا الموقع في نفس اليوم مع سعادته بعد أن وجهت الأهالي الذين يعملون في خدمتي بمرافقة الجمال التي تحمل أمتعتي. وفي صبيحة اليوم التالي – وعندما علمت بعدم وصول الأمتعة والجمال – قررت أن اعتلي صهوة جوادي وأذهب لأعرف الأسباب التي أدت إلى تأخيرها خاصة وقد علمت أن الباشا قد نوى مواصلة السير إلى بربر ذلك اليوم. فعلمت أن أحد الجمال صعب عليه حمل المتاع فوقع أرضاً مما تطلب أن نرسل آخر للقيام بالمهمة. وتبعا لذلك ظللت انتظر حاجياتي حتى المساء. وفي هذه الأثناء تحرك الباشا بجيشه. وبعد أن تركت أجزاء من متاعي ذات الوزن الأثقل في إحدى المراكب وتلقيت مؤونة شهر، توجهت في الحادي والعشرين من الشهر إلى المكان الذي عسكر فيه الباشا قبل أن يتحرك بجيشه إلى بربر، وذلك للانضمام إلى من فرضت عليه الظروف – مثلي – أن يتخلف عن الركب. وعند وصولي ألفيت أحد قادة الجيش ومعه ثلاثمائة من الجنود الأرناؤوط [٢] في انتظار الجمال التي ستصلهم من بربر للحاق بالباشا. وكان هناك أيضاً سبعمائة من المشاة المغاربة –

(١) السبب الذي دفع الباشا لاختيار طريق الصحراء، أنه كان قصيراً فالنيل يحدث إلتواء هائلًا ما بين (مروي) و(بربر) يحتوي به الصحراء مما تطلب أن يتخذ الباشا سبيلاً آخر ليتجنب ذلك الالتواء.

(٢) هم من المشاة الذين ينتسبون إلى (مقدونيا القديمة). ولعلهم من أشد المحاربين بأساً في العالم.

فوق المراكب - ينتظرون نقل خيامهم ومتاعهم عبر الصحراء. وعندما شرحت لقائد المجموعة الظروف التي أدت إلى تأخيري، نصحني بانتظار وصول (السلحدار) عند قدومه من الشمال ومصاحبته للحاق بالباشا. فقبلت النصح ونصبت خيمتي انتظاراً للسلحدار. وخلال هذا اليوم علمت بأن أمراً قد صدر إلى المراكب الكبيرة بعدم الدخول في مغامرة اجتياز ما تبقى من الشلال الثالث. فهذه المراكب استطاعت - بصعوبة بالغة - اجتياز خمسين ممراً صعباً حتى الآن. وبقى لها - كما قيل لنا - ما يقارب المائة قبل أن نفرغ من عبور الشلال الثالث. وعندما يكون النهر ممتلئاً والفيضان في ذروته فإن من المستحيل اجتياز هذا الشلال في الاتجاه المعاكس للتيار بحسبان أن اتجاه النهر - هنا - يبدو غير مألوف ولا يتيح الاستفادة من الرياح، فضلاً عن أن التيار - نفسه - يكون عنيفا خلال موسم الفيضان نسبة لوقوع الممرات بين الجزر والصخور. وبالإضافة إلى كل هذا، فإن سحب المراكب [1] بالحبال لا يجنبها العقبات الطبيعية التي تبرز عقب كل ميل أو ميلين.

وفي غرة جمادي الآخر وصل (السلحدار) من الشمال حيث كان يقوم بجمع الذرة لإطعام الجيش. وبعد - يومين من وصوله - صحبته في رحلته عبر الصحراء لإدراك الباشا. وكان الطريق الذي سلكناه - خلال اليومين الأولين - يسير قريبا من النهر. وفي أصيل اليوم الأول بلغنا مكانا

---

(١) ثبت أنه من الممكن اجتياز الشلال الثالث بمراكب لا يتجاوز غاطسها ثلاثة أقدام وبمعونة كل الرجال القاطنين على الشاطئ. فقد استطعنا أن نسحب بالحبال تسع مراكب إلى(بربر) قبل أن يستأنف الباشا المسير بجيشه إلى سنار. وقد استغرقت مسيرة المراكب من جزيرة(كندي) إلى (بربر) خمسة عشر يوماً.

جميلاً على الشاطئ حيث نصبنا خيامنا للمبيت. وفي الصباح - ركبنا خيولنا عند الشروق - وسرنا حتى منتصف النهار إلى أن بلغنا غديرا عند سفح جبل عال لا يبعد كثيرا عن شاطئ النهر فاغتسلنا وملأنا القرب بالماء استعداداً لتتبع الطريق الذي ينحرف - من هنا - في إتجاه الصحراء، وبدأنا المسير من ساعة الأصيل إلى ما بعد منتصف الليل حيث توقفنا للنوم. كان الطريق كما بدأ لنا - وادياً من أودية النيل - يمتلئ بالماء في موسم الفيضان وتظلل حوافه أشجار الدوم والسنط والحشائش الكثيفة في فترة الجفاف. وعندما أشرقت شمس اليوم السادس ركبنا خيولنا واتجهنا شرقا عبر تلال صخرية وسهول رملية وأودية تعج بأشجار السنط والحشائش الخشنة، لكننا لم نصادف بركة أو غديرا إلا أن احتمال الحصول على الماء بحفر آبار سطحية في هذه الأودية، أمر وارد. وفي الصباح واصلنا مسيرنا حتى بلغنا - عصرا - البئر اليتيمة التي تقع بالقرب من جبلين عاليين مكونين من حجارة الجرانيت السوداء. كان ماء البئر معتكراً وملوثاً، عافته الجمال العطاش.

اعتلينا صهوات جيادنا وقت الأصيل وواصلنا المسير [1] إلى أن انتصف الليل وحينها سقطت بعض الجمال من الإعياء ومات بعضها من فرط التعب. هنا أمر (السلحدار) بالتوقف لقضاء ما تبقى من الليل. وعند شروق شمس اليوم التالي واصلنا السير حتى بلغنا النهر ظهراً في الثامن

(١) كانت أوامر (السلحدار) أن يسير خبراء الطريق على أقدامهم مع فصيل خصوصي من الفرسان وقد أصدر (السلحدار) لهذا الفصيل أمراً مستديماً بإطلاق النار على هؤلاء الخبراء عند ظهور أقل بادرة شك لخيانة من جانبهم.

من الشهر. وكنت أمني النفس ببعض الراحة من عناء السفر واشبع طعاما وأقي جسمي من حرارة الشمس التي ألهبت وجهي وأثرت على عينيّ اللتين ما تزالا تعانيان من الرمد الذي أصابني في (وادي حلفا). غير أن (السلحدار) لم يمنحنا من الراحة سوى الجزء المتبقى من النهار إضافة إلى الليلة التي تليه. ورأينا هنا كيف أن الأهالي يفلحون الأرض الممتدة على شاطئ النهر حيث تتناثر قرى عديدة.

وفي اليوم العاشر استأنفنا المسير عبر حقول الشعير والقطن والقمح. وفي اليوم التالي اتخذ مسيرنا طريقا يشق سهلا صخرياً يمتد ما بين النهر وجبال الصحراء حيث لم نر إلا قليلا من بقاع مزروعة.

وفي الحادي عشر من الشهر بدأنا مسيرنا قبل شروق الشمس على أمل أن نلحق بركب الباشا عصرا. وكان الطريق يتبع حافة الصحراء ويسير موازياً للأراضي الزراعية. وعلى جانبي الطريق امتدت القرى التي قامت بعيداً عن مدى فيضان النهر الموسمي وعلى بعد ميل أو ميلين من مجراه. ويفلح الأهالي الأرض - هنا - بمهارة لا تقل عن مهارة الفلاح المصري ويربي هؤلاء الأهالي الخيول والجمال والحمير والضأن والأغنام.

سرنا بلا توقف - في جو شديد الحرارة - حتى الغروب إلى أن انتهينا إلى معسكر الباشا حيث يجري النيل في اتجاهه الطبيعي (من الجنوب إلى الشمال) غير أنه ينحرف يساراً - بعد مسيرة خمسة أو ستة أيام - ليبدو وكأنه آت من الجنوب الشرقي، وهذا المنحنى الذي يبلغ طوله مائتين

وخمسين ميلا لم يكن معروفا لدى العالم المتحضر قبيل حملة إسماعيل باشا.

تستغرق الرحلة من معسكرنا (عند الشلال الثالث) أي بلاد البرابرة – فوق عباب الماء – ثمانية أيام. غير أنها لا تحتاج إلا إلى أربعة أيام عبر الصحراء.

كانت مركب الباشا (المسماة: الكانجا) أول مركب شراعي يطرق بلاد البرابرة الذين أطلقوا عليه (مهر الماء) نسبة إلى سرعته. وتقاطروا نحو الشاطئ لرؤية أول مركب يسير عكس التيار بغير مجاديف.

في الثالث عشر من الشهر حظيت بمقابلة الباشا الذي استجاب لبعض طلباتي ووجهني بألا انقطع عن التردد عليه.

. . كان الباشا – قبل أن يغادر الشلال الثالث – قد استقبل رسلا من الملك (شاويش) وقد جاءوا من منطقة شندي يطلبون الأمان. فقال لهم الباشا إنه لا سلام إلا بعد أن يسلموا له خيولهم وأسلحتهم ويعودوا إلى بلادهم في هدوء ودون أن يسببوا لجيرانهم ضرراً أو مضايقة، غير أن رسل الشايقية رفضوا عرض الباشا. فقال لهم الباشا إنه سيأتي إلى شندي وينتزع منهم الأسلحة. فقيل أنهم قالوا له: (تعال وخذها) [1](١٥).

وعلى كل فإن زعيم (شندي) – عندما علم بوصول الباشا إلى بربر – بعث بابنه حاملا بعض الهدايا الثمينة إلى الباشا وأعلن استسلامه وبذلك

(١) علمت أن مندوبين من شيوخ الشايقية قد وصلوا إلى المعسكر قبل أن يغادر الباشا (وأدي حلفا) – يسألون عن الأسباب التي دفعته لشن الحرب عليهم – فأجابهم الباشا قائلاً:لأنكم قطاع طرق ترعبون وتنهبون جيرانكم، فقالوا له: (لكننا لا نعرف سوى ذلك وسيلة للعيش)، فرد عليهم الباشا قائلاً: (أفلحوا أراضيكم وعيشوا بشرف. فقالوا له بعفوية مطلقة: (لقد نشأنا على ما تسميه نهباً. . لن نعمل لأننا لا نستطيع تغيير ما شببنا عليه.) فرد عليهم الباشا قائلاً : (سأرغمكم على تغيير ما نشأتم عليه).

فقد الملك (شاويش) سند هذا الزعيم كما أن (سنار) فقدت أحد أقوى حلفائها. واستسلم بقية المماليك[1] للباشا عند وصوله إلى بربر، فأنعم على كل واحد منهم بألفي قرش لمقابلة مصروفات رحلة العودة إلى القاهرة وأكد لهم أنهم يمكن أن يعيشوا في كنف ورعاية (محمد علي باشا). وبما أنني لم أكن قد وصلت إلى معسكر الباشا حين لقي المماليك، فقد أخبرني من كان حاضراً أنهم كانوا يمتلكون عبيداً وخيولا أصيلة يمكن أن تدر عليهم مالا وفيرا في مصر. وهناك مجموعة صغيرة من المماليك، فرت من شندي إلى جهات بحر أبيض (النيل الأبيض) فتعرضت إلى هلاك مؤسف بالرغم من أن الباشا كان قد أرسل إليهم (ديوان أفندي) لطمأنتهم كما فعل مع أخوتهم الذين غادروا إلى مصر، ولكن محاولات (ديوان أفندي) باءت بالفشل، غير أنه ما من شك أن من تبقى من المماليك المستسلمين سيلاقون عطف وحماية الوالي الذي ستشمل إنسانية هؤلاء البؤساء الذين فقدوا سلطانهم وسيادتهم بفعل تصرفاتهم الخرقاء[2].

وفي السابع عشر من الشهر، عبرت – على مركب الباشا – إلى الضفة الشرقية للنهر لرؤية عاصمة بربر الواقعة – تقريباً – قبالة معسكرنا، وعندما أدركت الشاطئ توجهت سيرا على الأقدام لمدة نصف ساعة لاجتاز حقول الذرة الكثيفة قبل أن أصل إلى الطريق الذي يتجه صوب مقر الشيخ. وبعد أن عبرت الحقول برزت لي سلسلة من القرى الممتدة إلى

(١) تقلص عدد المماليك حين وصلنا (بربر) إلى ما دون المائة. وكان معهم بضع مئات من السود المجندين.

(٢) يسعدني أن أضيف أن هناك بقية من الفرسان المغاوير تعيش الآن في أمن وأمان بمصر بعد أن نفذ محمد علي باشا تعهدات إبنه إسماعيل لهم.

حوالي ثلاثة أميال في اتجاه أدنى النهر. ومن بين هذه القرى(القوز) التي تشير إليها الخرائط باعتبارها عاصمة بربر. غير أن مقر ملك [١] أو شيخ الضفة الشرقية ليس في هذه القرية ولكنه في قرية أكبر يطلق عليها (نصر الدين) نسبة إلى الملك الحالي الذي يقطنها كما علمت.

تبني منازل هذه القرى - كما هو الحال في بقية منطقة بربر - بالطين والطوب الأخضر، وتسقف بالحطب الخام وحزم القش أو أعواد الذرة ولا تميز دار الملك عن عامة المنازل إلا بكونها رحبة.

. . يحكم الضفة الغربية ملك آخر تقع قريته على مبعدة من معسكرنا في اتجاه أعالي النهر، ويسكن (نصر الدين) وما يجاورها من القرى عدد مقدر من الناس وذلك ضمن منطقة خصبة جيدة الفلاحة وموفورة الذرة والقطن والشعير والخيول الأصيلة والإبل والضأن والماعز والدواجن كما هو الحال في سائر منطقة بربر. وقد قابلت في هذه القرى بعضا من تجار القوافل الذين ليس لديهم - حاليا - ما يعرضونه من السلع سوى قماش القطن الخشن الذي - لا يجد القرويون - رجالا ونساء - ما يسترون به أبدانهم سواه. فهو إزار وثوب يغطي الرأس أو يلقي على الكتفين [٢].

وبالرغم من أن سكان بربر يشبهون فلاحي مصر العليا من حيث لون البشرة إلا أنهم يختلفون عن أولئك من حيث أشكالهم وبنيتهم

(١) من المصادفات الفريدة أن ملوك دنقلا والشايقية وبربر وشندي والحلفاية يلقبون بنفس الألقاب التي جاءت في التوراة.

(٢) يلبس فرسان الشايقية قمصاناً طويلة تتيح لهم تحرير حركتهم أثناء استخدام الرماح والدروع والسيوف. ولابد هنا من إثبات حقيقة أن ملوك وشيوخ أعالي النيل يلبسون قمصاناً رفيعة المستوى (ذات لون أزرق أو أبيض) تجلب من مصر.

غير المتناسقة، وكثير منهم كانوا مصابين بتسوس الأسنان من أثر تعاطي (التمباك) وهو نوع رديئ من التبغ متعارف عليه هنا ومتوفر بما فيه الكفاية.

يقوم بخدمة هؤلاء الناس(في المنزل وفي الحقل) رقيق يشترون من القوافل القادمة من الحبشة ودارفور، ومن عجب أن مالكي الرقيق هؤلاء لا يترددون في السماح للجنود بممارسة الزنا مع أي أنثى مسترقة لقاء دولار واحد.

والنساء في منطقة بربر - على نقيض العادة في مصر - سافرات الوجوه دون أن يجدن حرجاً في ذلك. ولا تكتمل زينة الرجال والنساء - كليهما - إلا بتمشيط ناعم لشعر الرأس ثم تصفيفه في جدائل مدهونة بالشحم المعطر.

. . إنهم لا يحلقون شعر رؤوسهم وبالتالي يتكون عنقود ضخم من الشعر في مؤخرة الرأس يشبه ذلك الذي تعكسه بعض التماثيل المصرية القديمة [١] وهم يمارسون عادة الختان [٢] البشعة على النساء الحراير وعلى المسترقات على حد سواء، وذلك كما هي العادة عند القبائل القاطنة على ضفتي النيل جنوب (أسوان).

ويبدو على سكان منطقة بربر - في سلوكهم الظاهر- أنهم مؤدبون

---

(١) يسود نفس الزي بين النساء والرجال في مناطق دنقلا والشايقية وعلى امتداد الشلال الثالث. لكن هناك إضافة وهي: أنهم لا يكتفون بدهان الرأس وإنما يعممون الدهن على جميع الجسد بدعوى أنه يقي الجسم من الحرارة. ويضيف ذوو الشأن إلى الدهن، العطور، ولكل ملك عبد قيم على هذا الأمر. وقد شممت رائحة هذا العطر على مسافة ميل حين رافقنا ملك شندي إلى سنار.

(٢) هذه الممارسة موغلة في القدم فقد ذكر (سترابو) بصفحة ٢٩٤ أنها عادة فرعونية. وهي ما تزال سائدة حتى اليوم وسط أقباط الحبشة.

ورقيقون، فكل إنسان لقيناه كان يلقي علينا تحية: (السلام عليكم) ويبدي - تلقائياً - استعداده لتقديم ما في وسعه من خدمات. وربما تعود هذه الخصال لكون هؤلاء الناس - إلى حد كبير - من التجار. فبربر منطقة مطروقة سنوياً بالعديد من القوافل الآتية من الحبشة وسنار ودارفور وكردفان.

وفي الثالث والعشرين من جمادي الآخر، وصل (أفندي الديوان) من شندي وفي معيته ملكها ويرافقه إبن ملك قبيلة الشايقية الذي لاذ بالفرار (بعد معركة كورتي) وقد جاء ملك شندي في حاشية مهيبة ويقود حصانين كريمين هدية للباشا [1] وعندما دخل الملك على الباشا، قبل يده ثم مسح على جبينه هو معلناً أنه جاء ليستسلم ويسلم بلاده- خاضعة - لنفوذ وحماية إسماعيل.

. . استقبل صاحب السعادة ملك شندي استقبالاً كريماً وأهدى إليه ثياباً فاخرة وحصاناً ذا سرج مزركش، ثم ذُهب به إلى خيمة (الخازندار) حيث تلقى الإكرام اللائق وفقاً لتوجيهات الباشا، أما إبن الملك (شاويش) فقد جاء نيابة عن والده وممثلاً لشيوخ الشايقية الكبار طلباً لعفو الباشا عن هؤلاء الشيوخ وتابعيهم ممن بقى من الرجال الفارين قبالة شندي وينتظرون ما يتقرر بشأن مصيرهم، وقد علمت أن الباشا كان مصمماً على أن تسليم أسلحة وخيول الشايقية هو السبيل الأوحد لكي يسود السلام بينه وبينهم.

(١) لم أر في حياتي أجمل ولا أكرم من هذين الحصانين العربيين الفحلين العاليين الجريئين.

بعد ثلاثة أيام عاد ملك شندي إلى قومه بعد أن حاز على رضا الباشا. وفي الخامس والعشرين من هذا الشهر، عبرت إلى ضفة النهر الشرقية لشراء بعض الجمال، غير أني لم أجد من بين المعروض منها للبيع ما يستاهل السعر المطلوب.

أمضيت سحابة نهاري وليله في بلدة (نصر الدين) عند شيخ نافذ من شيوخ المنطقة: حائز على لقب (ملك) مثل كل أصحاب النفوذ من شيوخ بربر والشايقية ودنقلا، الذين يرثون ذلك النفوذ أباً عن جد، وقد لفت نظري أن أفراد الأسر المالكة – بالمقارنة مع عامة الناس – يتميزون بقامات فارعة وأجسام ممتلئة، فالملك الذي أويت إلى منزله – والذي كان في حوالي الستين من العمر تبلغ قامته مايقارب السبعة أقدام، وكان شديد الإمتلاء أما إبنه الأكبر والذي يبلغ من العمر حوالي إثنين وعشرين عاماً فقد كان طوله ستة أقدام وأربعة بوصات مع امتلاء جسمه [1] وتناسقه، وأنا أعزو هذه البسطة في الجسم إلى جودة الغذاء وإنفتاح الشهية وإلى عدم الاشتغال بهموم العمل سوى مراقبة أداء الخدم والعبيد.

إن بربر، طبقاً لأفضل المعلومات التي جمعتها، منطقة ضيقة الرقعة لا تمتد من الطرف الأعلى للشلال الثالث إلا إلى مسافة ثمانية أيام سيراً على الأقدام وذلك بعرض ضفتي النيل وتحد من الجنوب بالبحر الأسود [2] الذي يفصلها عن منطقة شندي، أما أراضيها الزراعية فتمتد – في الغالب

---

(١) أثناء جلوسي معه في منزله احتوى هذا الرجل ذراعي بين أصبعين من أصابعه ثم أشار إلى مسدسي مبتسمًا وقال: (لولا سلاحك هذا لقذفت بعشرين منكم في مياه النهر).

(٢) الاسم الذي يطلقه الأهالي على نهر عطبرة.

الأعم - مسافة ميل أو ميلين من شاطئ النهر، وتغمر المياه هذه الأرض الزراعية في موسم الفيضان مما يتيح إنتاجاً وفيراً من الذرة والقمح والشعير والبقوليات والقطن والدخن والتبغ والخضروات التي يعرف نوعها في مصر، أما تربية الحيوانات فتشمل أعداداً هائلة من الأبقار ذات القرون والضأن والغنم والإبل والحمير والخيل الكريمة.

وهذه المنطقة آهلة بالسكان وتتشابك قراها - ذات البيوت الطينية، المسقوفة بألواح مسطحة تعلوها طبقة من القش - على ضفتي النهر، لكن منازل الملوك كانت تتميز عنها بسقوف بارزة من الطوب الأخضر. وهذا النمط من البناء يوفي بالمطلوب في منطقة لا تهطل عليها الأمطار الغزيرة على مدار العام. أما منازل الفلاحين فتتكون من حزم رأسية متجاورة من سيقان القمح ومسقوفة بها.

والناس - هنا - ينامون على أسرة كحال الناس في دنقلا وديار الشايقية، وهي أسرة مصنوعة في شكل مستطيل خشبي يقوم على أربع دعائم قصيرة ومنسوج من سيور جلدية مرنة ومريحة يستلقي عليها النائم.

وتتوفر في بربر كميات كبيرة من الملح يجمعها الأهالي من بعض الجبال الجيرية القابعة بين الصحراء والأراضي الزراعية، ويوجد هذا الملح في شكل حبيبات خام تختلط بتراب أغبر يعالجه الأهالي بالماء فيذوب الملح في الماء ويترسب الطين في قاع الإناء المستخدم، ومن ثم يصب الملح

المذاب في إناء آخر ويوضع تحت أشعة الشمس أو فوق نار ليتحجر مخلفاً مادة الملح.

تتكون عاصمة الملك نصر الدين من مجموعة قرى تكفي مساكنها لإيواء خمسة أو ستة آلاف من الأنفس، ولكنني أشك في بلوغ عدد سكانها لهذا الرقم.

ويتحدث السكان لغة عربية سهلة الفهم كلغة المصريين لكنها تحوي كلمات قديمة لا يتحدثها الآن سكان أسفل النيل، فمثلاً يطلق سكان منطقة بربر على الخروف: (كبش) [1].

وبالنسبة للطقس، فإن فرق درجة الحرارة (بعد ساعتين من حلول الظهيرة) بالمقارنة مع درجة الحرارة قبل ساعة واحدة من شروق الشمس (وذلك خلال شهر الاعتدال الربيعي) يصل إلى عشر درجات بمقياس (رومير) [2] وفقاً لما أفادني به كبير أطباء الحملة الذي كان في حيازته ميزان حرارة من هذا النوع. وبما أننا الآن في فصل الربيع، فإن درجة الحرارة بعد ساعتين من منتصف النهار – حسب أثرها على الجسم – تماثل حرارة بداية الصيف في القاهرة.

لم تسترع انتباهي حيوانات متوحشة في أي من منطقتي بربر وما قبلها، وفي ظني أنها نادرة الوجود هنا.

حتى الخامس من رجب، ظل المعسكر قائماً في بربر انتظاراً لوصول

---

(١) أصل هذه الكلمة يرجع إلى اللغة العبرية.

(٢) ينسب إلى رينية رومير (١٦٨٣ – ١٧٥٧) وهو عالم فيزياء اخترع هذا المقياس الحراري عام ١٧٣٠م – المترجم.

ما تبقى من المدافع والذخيرة والجنود والمؤن التي كانت على ظهر السفن بناحية الشلال، والسبب في عدم نقل هذا العتاد إلى هنا – حتى الآن – يعود إلى قلة الجمال الملحقة بالجيش فقد نفق الجزء الأكبر منها وهي تكابد السير – بأمر الباشا – لإجتياز الصحراء إلى بربر.

لقد تم الحصول على عدد مقدر من الجمال من بربر وتم إرسالها إلى الشلال بينما كان يتوقع أن يصل المزيد من(شندي) حيث رافق (ديوان أفندي) زعيم تلك المنطقة عندما غادر معسكرنا، لاستلامها. أما (عابدين كاشف) فقد غادر قبل يومين على رأس مجموعته العسكرية إلى (دنقلا) حيث كلفه محمد علي بحكم المنطقة الواقعة بين الشلالين الثاني والثالث، وقد قيل أن(إبراهيم كاشف) كان في طريقه لسد الفراغ الذي خلفه رحيل (عابدين كاشف) في معسكرنا، وكان (إبراهيم كاشف) على رأس ألف ومئتي رجل يتوقع وصولهم خلال أيام قليلة ما لم يتأخروا بسبب المرض الخطير الذي أصابه في الطريق حسبما يروج في المعسكر.

في السابع من رجب، حضر إلى معسكرنا (نصر الدين) ملك بربر لتقبيل يد الباشا تعبيراً عن ولائه الذي لم يتمكن من أدائه للغازي المنتصر – حتى ذلك الوقت – بسبب المرض. فجاء وفي معيته هدية للباشا قوامها خمسون جواداً كريماً وخمسون جملاً أصيلاً. وقد استقبله سعادته بالترحاب ومنحه – رداً على هديته – عطايا نفيسة.

و(نصر الدين)رجل طويل وضخم الجثة في الستين من عمره [1] . وقد

(١) في تقديري أن طول نصر الدين ملك بربر يبلغ سبعة أقدام.

قابلته بعد يومين من لقاء الباشا عند الشاطئ هو وبعض الشيوخ من أتباعه حين كانوا ينتظرون وصول إحدى المراكب لحملهم إلى بلادهم. فعبر لي عن ثنائه على الخيول الأنيقة التي أهداها للباشا والتي سرته كثيراً، فدعاني إلى منزله لإكرامي إلا أنني اعتذرت له ووعدته - إذا سمحت الظروف - أن ألبي الدعوة قريباً.[1]

لم يستجد من الحوادث ما يؤبه له خلال الفترة من العاشر من رجب إلى نهايته سوى وصول ما تبقى من المدافع والذخيرة والجنود - تباعاً - من الشلال والتي كان الباشا قد خلفها هناك عند مغادرته بحثاً عن الجمال التي تحملها[2].

وفي اليوم الأخير من الشهر وصل خيالة(إبراهيم كاشف) من مصر في أربعمائة فارس متمرس وسيليهم ألف من المشاة يتجهون إلينا. وفي هذا الوقت بقى (إبراهيم كاشف) - نفسه - في وادي حلفا وهو يعاني من مرض خطير.

---

(١) أتاح لي الوقت الذي قضيته إبان توقفنا في بربر، أن أعالج الداء الذي أصاب بصري وأن اعتني بصحة بدني، فقد كانت صحتي العامة مزرية، أما الباشا فقد قضى فراغه في لعبة الشطرنج مع جندي عجوز من جنوده وكان هذا الجندي يتلقى - عندما سكب اللعب - قطعة نقود ذهبية (محبوب) أما حينما يخسر فان عليه أن يستعد ليتلقى عشرين جلدة على عجيزته. ولهذا السبب كان الجندي العجوز حريصاً على ارتداء بنطالين تركيين واسعين من قماش سميك.

(٢) لتأمين سلامة صلاحية الخيول لأداء مهمتها القتالية، فقد استخدمت الجمال لسحب المدافع عبر المنطقة الواقعة بين الشلال الثالث وسنار.

الفصل الثالث

من (بربر) إلى (شندي)

الفصل الثالث
من (بربر) إلى (شندي)

وفي الثاني من شعبان – وبعد ميقات صلاة الظهر بقليل – انطلقت قذيفة المدفع إيذاناً بالرحيل. فتم إنزال الخيام، وركبنا على خيولنا التي ضجت بالصهيل تحرقاً للمسير بعد طول رقاد. وهكذا استأنفنا الزحف لاجتياز منطقة الرعاة الأثيوبيين الخاضعة لسلطان شندي.

ولعله من المفيد للقارئ أن يتعرف على حركة السير المتبعة في جيش شرقي. فعادة تتحرك الجيوش – في المناطق الجنوبية من الإمبراطورية العثمانية – ليلاً أو عند الغروب بسبب حرارة الشمس نهاراً. فتحمل الجمال بالأمتعة وينطلق أمين تموين الحملة مع حرسه يتقدمهم خبراء الطريق لاختيار موقع جديد للمعسكر. وعند كل منحنى يقوم بإشعال نار هائلة ليهتدي بها الجيش الذي يقتفي أثره.

بعد ساعة من انطلاق المدفع الأول، دوى المدفع الثاني إيذاناً باستئناف المسير. فتقدم الجنود – أولاً – جماعياً في (طوابير). . في الوسط انتظم المشاة تتبعهم المدفعية بينما لزم الخيالة جناحي الجيش. أما رجال العبابدة – الذين اعتلوا ظهور الجمال – فقد كانوا في المقدمة وعلى الجانبين. ثم يجئ الباشا ومعه حرسه الخاص، ثم الجمال التي تحمل خيمة الباشا تتهادى على إيقاع أجراس كبيرة مدلاة يتناغم رنينها مع ضربات الطبول

الضخمة. ثم تجئ مجموعة الجمال التي تحمل خزائن الباشا، تليها تلك التي تحمل الذخائر، ثم - على مبعدة منها - الجمال التي تحمل أمتعة الجيش. وتقوم بحراسة مسيرة الحملة - من الخلف - قوة كافية.

وتطلق الصواريخ - من وقت لآخر - أثناء الليل لتحديد الجهة التي يمم شطرها خبراء الطريق أو عند الوصول إلى نقطة معينة تكون مقراً للمعسكر. وعندما تطلق المدافع خمس طلقات وتقذف في الجو الصواريخ الضوئية، يكون ذلك إشارة للجيش لكي يتوقف.

لقد وصلنا قبالة شندي - بالخطوة البطيئة - في مدة ثمانية أيام وعسكرنا على الضفة الغربية للنهر بالقرب من بلدة كبيرة يقال لها: (شندي غرب). وكان طريقنا من بربر يسير عبر منطقة سهلية مغطاة بالعشب، خصبة التربة، تمتد أميالاً من ضفة النهر. أما الجبال والتلال فلا يرى منها إلا القليل النادر [1]. وعبرنا قرى كبيرة كثيرة أغلبها يقوم بعيداً عن النهر لكي لا يتأثر بالفيضان. ومنازل القرى - هنا - ذات سقوف منحدرة من مادة القش مما يدل على هطول الأمطار موسمياً في هذه المنطقة. وخلال مسيرتنا الطويلة لم يقع بصرنا على النهر إلا في حالات نادرة وذلك حين نتوقف لنعسكر. وحتى عندما أبصرناه بدأ لنا منحصراً

---

(١) رأينا على الضفة الأخرى للنهر جبالًا يطلق عليها (الطرابيل) على مسيرة ثلاثة أيام شمال شندي. وقد علمت أن خرائب مدينة قديمة ومعابد وأربعة وخمسين هرماً، قد شوهدت عند سفح هذه (الطرابيل). وأنا أميل إلى الإعتقاد بأن هذا الموقع كان هو (مروي) الشهيرة عاصمة الجزيرة التي تحمل ذات الاسم، وفي الحقيقة فإن المنطقة التي توجد فيها هذه الآثار محاطة من الغرب بالنيل. ومن الجنوب بنهر الدندر والرهد، ومن الشمال بالبحر الأسود (أي نهر عطبرة). . وكل هذه الأنهار تصب في النيل. . ولعله من المحير أن الرحالة بروس - الذي ادعى مروره بهذه الآثار القديمة - لم يسجل أنه قد رأى تلك الأهرامات. المترجم: يلاحظ هنا أن (إنجلش) يورد معلومة غير صحيحة عن نهري الدندر والرهد.

وضيق المجرى بالرغم من أن مجراه الأصلي يبلغ – من حيث العرض – ميلاً ونصف الميل.

وفي كل مرة نتوقف فيها، يأتي شيوخ المنطقة لتحية الباشا. . كان شعورهم يتسم بالود تجاه الجيش الذي كان سلوكه منضبطاً ونموذجياً.

وفي التاسع من الشهر، قمت بزيارة لبلدة(شندي غرب) الواقعة في مؤخرة المعسكر. . كانت واسعة وجيدة البناء مقارنة بالقرى الأخرى التي رأيت في أعالي النيل، فشندي غرب يسكنها ما يقارب الستة آلاف إنسان، ولها ثلاثة أسواق يتعامل فيها السكان بالدولار والذرة للحصول على احتياجاتهم، لكنهم لا يحبذون عملتنا نسبة لجهلهم بقيمتها وإن كانوا – أحياناً – يقبلونها ثمناً للدواجن والخضروات والسمن واللحم والذرة، ويطلبون الدولار في مقابل القمح.

وفي اليوم العاشر من الشهر، ذهبت إلى (شندي) الواقعة على الضفة الشرقية للنهر والتي هي عاصمة المنطقة. وقد اجتزت البلدة بشئ من الاستغراب، إذ أن منازلها واطئة لكنها مشيدة جيداً بالطين. وفي أنحاء مختلفة من البلدة، مستودعات واسعة مسورة تستخدم لاستقبال البضائع التي تجلبها القوافل. . إنها بلدة واسعة الأرجاء يبلغ سكانها حوالي خمسة أو ستة آلاف نسمة وشوارعها واسعة وذات تهوية جيدة وأسواقها تبيع اللحم والحبوب والخضروات وتستجلب التوابل من (جدة)، كما تتعامل في الصمغ العربي والخرز وحلي النساء.

وأهل (شندي) يتصفون بسوء الخلق، فهم عدائيون وماكرون. وتكتظ مدينتهم بالرقيق (من الجنسين) الوارد من الحبشة ودارفور بأسعار معتدلة. فالفتاة الحبشية المليحة تباع بأربعين دولاراً.

وبذل شيخ المدينة ما في وسعه لدفع أهله للترحيب بالعثمانيين. وهو نفس الزعيم الذي جاءنا في (بربر) وأهدى للباشا مئات الجمال الأصيلة. ومنزل الشيخ لا يختلف من حيث عمارته عن بيوت أهله سوى أنه منزل رحيب.

. . تقع (شندي) على بعد نصف ميل من الضفة الشرقية للنهر. ومحيطها ذو تربة رملية. وتكتسب المدينة أهميتها من كونها ملتقى طرق القوافل القادمة من (سنار) والذاهبة إلى (مكة) ومصر.

يقال أن المنطقة التي يحكمها ملك شندي، واسعة الأرجاء [1] بصورة تتناسب مع عدد السكان. وهذا الملك يستطيع أن يحشد في ميدان القتال - بالتحالف مع ملك الحلفاية - ثلاثين ألف فارس على خيول مطهمة جميلة تضارع أرقى خيول الدنيا.

وفي الرابع عشر من الشهر ذهب بعض الجنود إلى قرية قرب المعسكر للحصول على حصتهم من الذرة المعروضة في سوق القرية الذي أقامه شيخها لخدمة جيش الحملة. فتعرض الجنود للإهانة من قبل الأهالي، وسيئت معاملتهم، بل إن اثنين منهم راحا فوراً ضحية للطعن بالرماح بينما أصيب البعض بجروح بليغة. وعندما وصلت أخبار الإعتداء على الجنود إلى المعسكر، حمل زملاؤهم السلاح وركبوا خيولهم وتقدموا نحو

(١) تضم هذه المنطقة جزءاً كبيراً من جزيرة مروي القديمة.

القرية، وهم في قمة الإصرار على الإنتقام لقتلاهم الذين طعنوا بوحشية بالغة. وفي خلال خمس دقائق هب الجيش كله - تقريباً - للزحف على القرية وذلك قبل أن تصدر أوامر الباشا بإيقاف الهجوم وترك الأمر إليه. وعلى كل حال فقد كان من المستحيل إيقاف غالبية الجنود من التقدم نحو القرية، فنهبوها وخربوها وقتلوا - في ثورة الغضب - العديد من سكانها غير أن الغنائم التي جاء بها المنتقمون صودرت بواسطة (السلحدار) وتمت إعادتها لأصحابها بأمر الباشا.

كان تصرف سعادة الباشا - حيال هذا الحدث - جديراً بالثناء، غير أنه يجب أن نعترف أن الجنود لم يكونوا ملومين. فحصة الذرة البائسة التي لا تكاد تقيم الأود، هي كل المطلوب مجاناً من هؤلاء الناس وذلك بموافقة زعيمهم. إلا أنهم - وهم في قبضتنا المطلقة - مارسوا مع الجنود الجوعى نوعاً من الابتزاز ورفضوا مطلقاً وبكل غطرسة وضراوة بيع أي شئ لهم.

الفصل الرابع

من (شندي) إلى (الحلفاية)

الفصل الرابع
من (شندي) إلى (الحلفاية)

وفي الخامس عشر من الشهر - وقبل الغروب بساعتين - انطلقت قذائف المدفع استعداداً لمواصلة المسير تجاه سنار.

استمرت مسيرتنا حتى منتصف الليل ثم قضينا فترة راحة - كالعادة - على ضفة النهر حتى عصر السادس عشر من الشهر. ثم استأنفنا المسيرة لمدة خمس ساعات قبل أن نتوقف على الشاطئ مرة أخرى، ومكثنا هنا حتى عصر الثامن عشر من الشهر لكي نحصل من القرى المجاورة على علف للخيل يكفيها لمدة ثلاثة أيام. . إن القرى عديدة وممتدة على رقعة واسعة من الأرض غير أن الطريق في المنطقة التي تليها كان خالياً من السكان والنبات.

وفي نفس هذا اليوم، جاء الملك (شاويش) كبير الشايقية - والذي فر أمام تقدم الجيش - مستسلماً للباشا. وقد خاطب الباشا - كما علمت - بقوله: (لقد قاتلتك بكل ما أملك من قوة وعتاد، وأنا الآن مستعد للقتال تحت إمرة من تغلب عليَّ).

إن الشجاعة التي أبداها هذا الرجل أثناء القتال والصلابة التي اتسم بها في محنته، قد أكسبته احترام العثمانيين وهيأت له استقبالاً كريماً من الباشا. فأنعم عليه برتبة (بمباشي) وضم رفاقه لخدمة الجيش.

والملك (شاويش) رجل ضخم الجثة، مليح الوجه رغم سواده [1] وهو في حوالي الأربعين من العمر ويعتبر المقاتل الأعظم المهاب [2] من بين سكان أعالي النيل.

عبرنا السهول الجرداء الصخرية خلال يومي: التاسع عشر والعشرين من الشهر، وكنا نبدأ المسير من منتصف العصر إلى منتصف الليل. وفي اليوم الثالث (الحادي والعشرين) بلغنا أرضاً على حافة النهر تنتشر فيها قرى عديدة بقينا فيها حتى منتصف الظهر، وعند وصولنا إلى تلك القرى، أخذ الجنود - تحت جنح الظلام وبفعل الجوع - ينهبون الضأن والماعز من الأهالي مما دفع الضباط إلى منع الجنود من الوقوع في جريرة عصيان أوامر الباشا في هذا الصدد. وقد عوقب كثير من المذنبين عقاباً شديداً على لجوئهم إلى الوسائل الممنوعة لتلبية حاجات النفس الأمارة بالسوء.

وعند ميقات صلاة العصر. أطلقت قذائف المدفعية إشعاراً لمواصلة المسير إلى الأمام فغادرنا القرى المذكورة ومررنا بأراض رملية مغطاة بشجيرات وأشجار سنط شائكة عوقت مسيرة الجيش ودفعته للانعطاف

(١) لا أقصد بهذا التعبير أن (شاويشاً) كان زنجياً. فالإثيوبيون - بالرغم من سواد بشرتهم - تشبه تقاطيعهم ملامح الرجل الأبيض، وشعورهم طويلة.

(٢) يقال أن الملك (شاويشاً) عندما علم باستسلام ملك شندي، هدد بالهجوم عليه. فجمع ملك شندي عشرين ألفاً من أنصاره على الضفة الشرقية لمنع تقدم (شاويش) الذي كان - قبل وصولنا - مسيطراً على الضفة الغربية لمنطقة شندي، وكان هو وجماعته ينهبون ممتلكات الناس ويحتسون (مريستهم) بأبخس الأثمان. وعندما تقدم جيشنا نحوه، فر إلى منطقة الحلفاية وأقام في الصحراء بالضفة الغربية وطلب من شيخها أن يمده بالمؤن، لكن شيخ الحلفاية أبى. فعام (شاويش) وجنوده ليلاً وعبروا إلى الضفة الشرقية وفاجأوا الحلفاية بهجوم مباغت ونهبوها عن بكرة أبيها. ثم عادوا إلى الضفة الغربية قبل أن يستجمع ملك الحلفاية قواه لينتقم منهم. وكان فرسان الشايقية - أثناء سير الحملة - قد عبروا النيل بخيولهم خمس مرات بمهارة لا مثيل لها - حسب اعتقادي - في كل الدنيا. ومنذ أن التحق (شاويش) بالجيش قدم للباشا خدمات جليلة للغاية لأنه كان على علم بقوة وإمكانات وثروات كل القبائل التي تعيش على ضفاف النيل بدءً بالشلال الثاني، وإنتهاءاً بسنار، ثم دارفور.

عن الطريق - عدة مرات - مما أدى إلى انحرافه عن الاتجاه الصحيح. وظل الجيش يتخبط حتى منتصف الليل قبل أن يبلغ ضفة النيل.

وفي اليوم الثاني والعشرين من الشهر - وعند طلوع القمر - تقدم الجيش، ثم توقف قبيل الظهر عند شاطئ النهر قبالة(الحلفاية)، وهي قرية كبرى على الضفة الشرقية. ومكثنا هنا حتى السادس والعشرين من الشهر بغية الحصول على الذرة من هذه المنطقة. وجاء شيخ المنطقة بخيول كريمة وجمال هدية للباشا. فتسلم في المقابل هدايا قيمة.

. . كان الشاطئ الذي نزلنا عنده صحراوياً ومغطى بأشجار وشجيرات. وقد ارتفع منسوب النيل في ليلة الثالث والعشرين - فجأة- قدمين عما كان عليه وغمر جزء من الجروف الرملية حيث كنا نعسكر. ودخل الماء إلى عدد من الخيام بينها خيمتي. فابتل فراشي وسلاحي ومتاعي [1].

وكان النيل قد ارتفع قليلاً إبان فترة الاعتدال الربيعي - عندما كان الجيش يعسكر في (بربر) - ثم انحسر. أما السماء فقد كنا نراها - يومياً

---

(١) في مساء الثاني والعشرين من الشهر، تلقيت أوامر من الباشا بأن أتقدم الجيش وأختار موقعاً قرب الحلفاية ليكون معسكراً لجنود الحملة على النسق الأوربي. وقد أفضى إليّ السيد (كايو) بأنه ليس رجلاً عسكرياً ولذلك ترك الأمر - برمته - على عاتقي. فاخترت مكاناً جيداً على الشاطئ وعلى بعد ميلين جنوب الحلفاية تمتاز خلفيته بوفرة في الحشائش مما يساعد على علف الخيول والجمال. غير أن الباشا لم يلتحق بهذا المعسكر وفضل أن يبقى في بقعة رملية منبسطة ومنخفضة تجاه الحلفاية حيث لا عشب لغذاء الجمال مما أدى إلى نفوق عدد كبير منها. وكان للباشا أسبابه في اختيار هذا المكان، لأنه قرر أن يجعل المدينة في مرمى مدافعه إذ أن ملك الحلفاية لم يكن قد استسلم بعد. ولابد أن الباشا قد ندم على اختياره للموقع المذكور لأن منسوب النهر قد ارتفع وهدد خيامه بالغرق. ولحسن الحظ فإن الماء لم يصل إلى الذخيرة وإلا كان موقفنا الدفاعي في غاية الحرج. كان سبب ارتفاع منسوب النيل، هو فيضان (البحر الأبيض) الذي حدث - هذا العام على الأقل - قبل شهر تقريباً من فيضان الرافد الشرقي (يعني: النيل الأزرق).

- تزداد عتمة بينما تدوي الرعود وتضئ البروق - من على البعد - تصحبها عواصف مزمجرة (اقتلعت خيمتي مرتين). ثم اقتربت منا غضبة الطبيعة– بعد أيام قليلة– وتساقط المطر في معسكرنا.

الفصل الخامس

من (الحلفاية) إلى (سنار)

الفصل الخامس
من (الحلفاية) إلى (سنار)

بعد ساعة من عصر السادس والعشرين من الشهر. تقدمنا تجاه البحر الأبيض[1] الذي يبعد مسيرة خمس ساعات على الأقدام من مكاننا الحالي. ومن ذلك الموقع قرر الباشا العبور إلى إقليم سنار. فوصل الجيش – عند الغروب – إلى نقطة يقترن فيها النيل مع البحر الأبيض، حيث حط رحاله. وحال وصولي إلى تلك النقطة نهلت من ماء النهر الذي أحسب أنني أول الإفرنج الذين تذوقوا طعمه. وبمزيج من الفخر الأصيل والابتهاج الصادق، وقفت على ضفاف هذا النهر العظيم الذي ما زال – حتى الآن – في عزلته المجيدة. ثم غرفت غرفة – بَلَفيَّ – من مائه برجاء الرفاهية لجمهورية الولايات المتحدة العظيمة الحرة. . أرض الأحرار وموطن الرجال الشجعان.

أما نهر بروس[2] فلا يكاد عرضه يبلغ نصف عرض البحر الأبيض الذي يصل إلى ميل قبل نقطة التقائه بالنيل مباشرة، أما في ما وراء ذلك فيبلغ عرضه ميلاً وربع الميل. وهذا النهر (البحر الأبيض) ينحدر – بقدر ما توفر لي الرؤية – من غرب الجنوب الغربي مما يرجح الاعتقاد الجازم – عقب حملة إسماعيل باشا – بأنه فرع لنهر مجهول عظيم يحتمل أن يكون

(١) الإشارة هنا إلى: النيل الأبيض – المترجم

(٢) يقصد النيل الأزرق – المترجم.

له صلة بنهر النيجر[١] إنني اعتقد أن الأمر هو كذلك.

. . في الصباح الباكر لليوم السابع والعشرين من هذا الشهر، تابع جيش الباشا عملية عبور البحر الأبيض باستخدام تسعة قوارب كانت قد استطاعت أن تجتاز الشلال الثالث وتلحق بالجيش.

كانت المنطقة - من الناحية التي التزمناها (البحر الأبيض) - بوراً وخالية من السكان وجميلة وذات تربة جيدة تترامى إلى مسافة مقدرة- إلى الوراء - تجاه الصحراء. ويبدوا أن هذه المنطقة - أثناء موسم الفيضان تتحول إلى جزيرة بدليل وجود قناة جافة - في مؤخرتها - خربتها المياه. كما يلاحظ وجود آثار لأقدام وأرجل أفراس النهر على امتداد هذا السهل.

وفي عصر التاسع والعشرين - أي بعد يومين ونصف - فرغ الباشا من نقل كل الجيش - المكون من ستة آلاف جندي بالإضافة إلى المدفعية والذخائر والخيام والأمتعة والخيول والجمال والحمير - بتسعة قوارب صغيرة إلى بر سنار. وهذا عمل استثنائي لا مثيل له في تاريخ الحروب التركية[٢].

وخلال انتظارنا على الضفة الأخرى للبحر الأبيض. نما إلى علم المعسكر أن بعض الجنود المغاربة ذهبوا لاصطياد الغزلان في الصحراء

(١) تبدو معلومات (إنجلش) هنا مغلوطة تماماً، فالنيل الأبيض لا صلة له بنهر النيجر - المترجم.

(٢) عبر (شاويش) وجنوده والعبابدة النهر بخيولهم عوماً. أما خوجة حشمت - أحد قادة الجيش - فقد حاول تقليد فرسان الشايقية فأودى بحياة بعض الجنود وفقد سبعين جواداً. لذلك اتبعت طريقة أخرى تساق فيها الخيول والجمال في رفقة القوارب حيث يمسك الجنود بأعنتها حتى تعبر إلى بر الأمان. واتبع الشايقية والعبابدة وسيلة أخرى لتسهيل عبور جزء كبير من الخيول والجمال باستخدام(القرب المنفوخة) حيث كانت القربة تربط عند الصدر بالنسبة للحصان. وفوق الرقبة بالنسبة للجمل. وبهذه الطريقة سلمت حيواناتنا من الغرق.

البعيدة عن الشاطئ وجاءوا بصيد شبيه بالثور وله أقدام وأرجل تماثل أقدام وأرجل الجمل. وبالرغم من أنني لم أر هذا الحيوان، إلا أن الكثيرين قد أكدوا القصة لي.

وبعد أن عبر الجيش البحر الأبيض، عسكر في بقعة من الأرض عند أدنى نقطة يلتقي فيها البحر الأبيض مع النيل. ويلاحظ أن مياه البحر الأبيض معتكرة وضاربة إلى البياض وطعمها يتميز بحلاوة متفردة. ويقول الجنود (أن مياه البحر الأبيض لا تقطع الظمأ). وهذا الزعم ناشئ من حالة الإكثار من تناولها لأنها خفيفة الكثافة وحلوة الطعم. أما مياه النيل فهي - حالياً - صافية وشفافة ولكن مذاقها غير مستساغ بالمقارنة مع مياه البحر الأبيض وهذا ما جربته بنفسي حيث أخذت شربة من ماء البحر الأبيض أولاً، ثم مشيت مسافة مائتي ياردة عبر نقطة التقاء النهرين ونهلت من ماء النيل، فبدأ لي ماؤه - بالمقارنة مع ماء البحر الأبيض - ثقيل الكثافة، عديم الطعم.

والإبحار إلى أعالي البحر الأبيض لمدة أربعة أو خمسة أشهر - من النقطة التي نزلنا عندها - سهل إذا توفر مركب مجهز بالرجال والعتاد ومصحوب بقارب يحمل المؤن الكافية، بالإضافة إلى أدوات إرساء تمكن من الوقوف - ليلا - في الماء. فسلامة الإبحار إلى الأعالي والعودة منها بأمان أمر مضمون إذ أن القبائل القاطنة على الشاطئين يروعها السلاح الناري ولا تتجرأ على من يحمله.

ظللنا مقيمين في البر السناري من البحر الأبيض حتى غرة رمضان، وفيها استأنف الجيش المسير إلى سنار العاصمة ملتزمة ضفة النيل [١] حيث وصلها بعد ثلاثة عشر يوماً.

أعطيت إشارة إنزال الخيام وتحميل الجمال بعد ساعتين من منتصف الليل. وسمح بساعة واحدة لحزم الأمتعة، ثم أطلقت المدفعية إشارتها الثانية إيذاناً بتحرك الجيش. واستمر الجيش يزحف يومياً إلى ما قبل ساعتين من منتصف الليل. وخلال هذه الفترة يأتي شيوخ القرى إلى المعسكر لتحية الباشا ويتمنون له النصر إذ يبدو أن سلطان سنار لم يكن محبوباً لدى شعبه.

لقد قاسى الجيش كثيراً أثناء مسيرته. فالجنود لم يكونوا يتلقون من الطعام سوى الذرة غير المطحون، مما جعلهم يذوقون الأمرين قبل أن يتمكن الواحد منهم من إعداد قطعة صغيرة من عجين بائس، هو كل ما يتوفر لهم من طعام [٢]. أما أنا – نفسي – فقد ساء وضعي إلى أقصى الدرجات فالجمل الذي كان يحمل مؤونتي وأدوات طبخي وأشياء أخرى، ضل الطريق بسبب إهمال أحد الأهالي الذي يرعاه. ونتيجة لذلك فقد بت أتضور جوعاً بعد أن فقدت مؤونتي ووسائل تجهيزها طعاماً. ولم يكن أمامي إلا أن ألوذ بظلال خيمة السيد (كايو) الذي أشرت إليه في المقدمة بكثير من التقدير المستحق، حيث آواني حتى وصولي إلى سنار.

---

(١) الإشارة هنا إلى النيل الأزرق لا نهر النيل – المترجم.

(٢) لا يستخدم أهالي دنقلا والشايقية وبربر وشندي وسنار الطواحين للحصول على دقيق الذرة، وإنما يستخدمون طحانة يدوية (المرحاكة) لهذا الغرض، وهو عمل تتولاه النساء.

المنطقة التي عبرناها من مملكة سنار، تقع ما بين النيل[1] والبحر الأبيض، وهي سهل شاسع خصب يضم العديد من القرى التي من بينها قرى كبيرة جداً. فود مدني [2] - مثلاً - يسكنها أربعة أو خمسة آلاف من الناس.

إن المنطقة التي مررنا بها - خلال هذا الفصل من العام - كانت عارية من النباتات وتبدو في هيئة حقول واسعة زرعت بالذرة في الموسم الماضي، وتكثر أشجار السنط والأدغال - في الجهة الخلفية الرملية للنهر - دون أن يخالطها شئ من عشب. ولأنني لم أر - طوال الطريق - أثراً لأي ساقية، فإن الظن الأرجح هو أن هذه الحقول تروي بما الفيضان، وعندما يتراجع النهر، يشرع المزارعون في البذار.

ومنازل القرى تبني على النحو التالي: يقوم البناء بغرز دائرة من أعواد الحطب في الأرض، ثم يبني عليها سقفاً مخروطياً من الأعمدة الخشبية. ثم يغطي أعواد الدائرة والسقف المخروطي بطبقة من القش لحماية من الأمطار. غير أن بعض المنازل المملوكة لشيوخ القرى تبني من مواد أقوى، فحوائطها سميكة ومشيدة بالطوب الأخضر وسقوفها ذات حواف متميزة. أما أكواخ الأهالي - التي ذكرت سلفاً - فلا يدخلها الهواء ولا الضوء إلا من خلال الباب وإلا من خلال أربع نوافذ صغيرة مفتوحة في الجدران. وهذه التهوية الشحيحة تجعل هذه الأكواخ شديدة الحرارة وخانقة. فالفرق بين درجة الحرارة داخلها ودرجة الحرارة في

(١) واضح أن الكاتب يقصد النيل الأزرق - المترجم.

(٢) يوردها الكاتب هذا Wahat Madinet.

الهواء الطلق – في تقديري – مثل الفرق بين درجة حرارة غرفة الملابس في حمام من حمامات البخار بالقاهرة، ودرجة حرارة الممر الذي يؤدي إلى تلك الغرفة. وهذه الحالة المناخية كافية لتفسير نسبة الوفيات العالية في سنار خلال موسم الأمطار حين تغلق أسر بأكملها عليها أبواب هذه الأكواخ، مما يؤدي إلى إصابة من يضطر إلى الخروج – وهو يتصبب عرقاً – بنزلة برد أو حمى.

وقبل أن يصل الجيش إلى سنار بستة أيام، استقبل الباشا رسولاً من السلطان في خلوة عاد بعدها الرسول – في اليوم التالي – إلى سنار. وقد كان رسول السلطان شابا أنيقاً تصحبه حاشية على ظهور الجمال.

واصل الجيش زحفه بالخطوة المعتدلة (معتدل مارش) متخذاً تشكيل الحرب: (المشاة في الوسط، الفرسان على الأجنحة، المدفعية في مقدمة المشاة، الأمتعة في المؤخرة، فرسان الشايقية وفيالق جمال العبابدة لتأمين المقدمة والجناحين من على البعد.) وبعد يومين أشيع في المعسكر أن سلطان سنار يتجه إلينا بقوات ضخمة تتقدمها أفيال عديدة وقطعان من الماشية ثم جمعها لتكون دروعاً في مواجهة سلاحنا الناري. وتقدم جيش الباشا بثبات – في هيئة قتالية – وهو مهيئ لخوض المعركة حرباً أو سلما. وقبل يومين من وصول الجيش إلى سنار، كنت أركب مجاوراً لباشي (الطبجية) الذي تقدم الجيش ضمن قوة المشاة، فرأيت عدداً هائلاً من الرجال المسلحين – على صهوات الخيل وظهور الجمال – يتقدمون.

ورأيت ملك شندي [١] (الذي صحب الجيش في مسيرته) يتجه إلى الباشا راكباً ويخبره أن الرجال القادمين هم كبار ضباط سلطان سنار وحاشيتهم، جاءوا يطلبون السلام.

وتمعنت في هيئة الرجال القادمين فرأيت اثنين أحدهما طويل، نحيل، طاعن في السن، خلاسي الملامح، يرتدي حُلة من حرير غال ذات لونين: أخضر وأصفر، وعلى رأسه طاقية متميزة تشبه التاج مصنوعة من ذات المادة [٢]. أما الآخر فقد كان هو نفس الشاب الذي جاء قبل أيام لمقابلة الباشا، يرفل في الحرير كرفيقه غير أنه كان حاسر الرأس [٣]. وصحب الرجلين صبي وسيم في حوالي السادسة عشر من العمر، قيل أنه إبن ولي العهد. واعتلى الثلاثة صهوات جياد عالية رائعة تحيط بها حاشية من حوالي مائتي رجل يركبون الجمال ويتسلحون بسيوف عريضة ورماح ودروع.

وعندما أحاط ملك شندي الباشا علما باقتراب القادمين، أمر الجيش بالتوقف. فنصبت خيمة الباشا وأذن للرجال الثلاثة بالمثول أمامه. فعاملهم بتقدير وتسامح عظيمين وأتاح لهم – خلال ذلك اليوم – أن يطلعوا (بما فيه الكفاية) على البون الشاسع بين أسلحتهم البدائية في مقابل أسلحتنا

---

(١) دعا الباشا ملك شندي وملك الحلفاية لمرافقته إلى سنار، إلا أن ملك الحلفاية إعتذر بسبب شيخوخته وأرسل مع الباشا أكبر أبنائه. وبهذه الحيلة السياسية، كسب الباشا هدوء الأحوال في منطقتي شندي والحلفاية وضمن لجيشه تأمين ظهره إذ أنّ أهالي المنطقتين لن يجنحوا إلى الثورة ما بقى الملكان في معسكرنا. و (نمر) ، ملك شندي رجل وقور ومهيب، في الخامسة والستين من العمر، رزين في مشيته وذو خلق رفيع. أما ملك الحلفاية فلم أحظ برؤيته.

(٢) يتقلد هذا الرجل منصب وزير سلطان سنار.

(٣) تولى هذا الرجل – كما قيل لي – قيادة الجيش.

الماضية. وفي المساء أطلقت الألعاب النارية ترويحاً وتنويراً لهم فكانت دهشتهم - وهو ما كان الباشا بلا شك يرمي إليه - تعبيراً عن الإحساس بالضعف وقلة الحيلة والاستسلام لما لا قبل لهم به.

وفي الصباح الباكر لليوم التالي، واصل الجيش زحفه يصحبه رسل السلطنة السنارية. وعند حلول الظهر، أخطرت الطلائع الباشا بقدوم سلطان سنار [1] نفسه لتحية سعادته، فاستقبله الجيش بالإكرام تقديراً لمكانته. ثم قادة مندوبو الباشا إلى الخيمة الباشوية حيث اختلى به الباشا لساعات. وعند خروجه هو والرسل الذين بعث بهم إلى الباشا من قبل، أنعم عليهم بكساوي تركية فاخرة إضافة إلى خيول لها أعنة وسروج مطرزة بخيوط الذهب.

---

(١) السلطان الحالي لسنار رجل في السادسة والعشرين من عمره، أسود البشرة نسبة إلى أمه الزنجية. وقد أطلق سراحه من السجن الذي قضي فيه ثمانية عشر عاماً بعد أن حبسه سلفه. فلما أغتيل ذلك السلف، جيئ بالسلطان الحالي عقب الثورة التي اندلعت قبيل زحفنا على سنار. وكان إسمه: (بادي.)

الفصل السادس

في ربوع (سنار)

الفصل السادس
في ربوع (سنار)

وصل الجيش إلى سنار في صبيحة اليوم التالي متبعاً الترتيب الحربي والاحتياط العسكري اللازم، يتقدمه الباشا وفي رفقته سلطان المملكة وكبار رجال دولته. وعندما بدت المدينة من بعيد، أطلق الجيش قذائف متواصلة متكررة من مدافعة وبنادقه - مصحوبة بصيحات الابتهاج - تحية لهذا الحدث الذي طالما تاق الجنود لوقوعه باعتباره نهاية المطاف للمعاناة والحرمان الذي خيم على مسيرتهم الطويلة. لكن صيحات الابتهاج أخذت تتلاشى تدريجياً عندما اقترب الجيش من المدينة واكتشف الجنود أنها صارت - من بعد قوة ومنعة - أكواماً من الخرائب تتخللها بضع مئات من المنازل الصالحة للسكنى. وعندما نصب المعسكر، تناولت شيئاً من الطعام ثم خرجت أتمشى في المدينة وأتعثر بركام الطوب الأخضر والصيني والرخام عند كل خطوة أخطوها.

وكانت أبرز المباني التي رأيت في سنار المسجد، والقصر المبني من الآجر، المجاور له. وكان المسجد في حالة جيدة وله نوافذ موئمنة بقضبان برونزية متقنة الصنع، وأبواب ذات نقوش بديعة. وهو - من الداخل - مدنس بصور منكرة لحيوانات مرسومة على الجدران بالفحم، فعلها سكان الجبال الوثنيون، الذين كانوا يسكنون جنوباً على بعد ثلاثة عشر

يوما سيرا على الأقدام. وقد احتل هؤلاء الوثنيون المدينة مؤخراً وتركوا على جدران المسجد تلك المخلفات الشائهة.

أما القصر فقد كان رحبا إلا أن تدميراً شاملاً قد أحاق به فيما عدا المبنى الأوسط ذا الطوابق الستة وصفوف النوافذ الخمسة. [١] وعندما تصعد إلى السقف، فإنك ترى سنار والنهر ومحيط القصر مما يمكن من تحديد المساحة الكلية لمنظر المدينة بدائرة محيطها ثلاثة أميال. والجزء الأكبر من هذه المساحة - الآن - بيوت مهدمة كانت مبنية بالطين والطوب الأخضر.

وأحسب أنه لم يبق من تلك البيوت سوى أربعمائة بيت، ثلثاها - أو يزيد - أكواخ قروية دائرية الشكل. وأكبر المنازل المبنية بالطوب، قصر السلطان. وهو بناء واسع الأرجاء يحوي سلسلة من المساكن المنخفضة المبنية من الطوب الأخضر، ذات السقوف البارزة، والجدران الداخلية المبلطة بالطين الناعم. وأكثر ما أدهشني، فن صناعة الأبواب القديمة التي تتكون من ألواح ملساء محكمة الالتحام، منحوتة الخشب ومثبتة بمسامير ذات رؤوس عريضة [٢]. . وكل هذه الأعمال البديعة من صنع أهالي سنار الحاليين.

إن أغلب منازل المدينة تقوم على طابق واحد ومسقوفة بطين ناعم ينشر على حصائر تمتد على سطح خشبي من ألواح متجاورة.

---

(١) أخبرني الأهالي أن ذلك القصر قد بناه آخر سلاطين سنار الفضلاء، قبل ثمانية عشر عاماً. وقد غرس السلطان صفوفاً من الأشجار أمام القصر إلا أنها ذوت عقب تخريبه إبان الصراع بين الفصائل المتناحرة على العرش.

(٢) لعله يشير إلى ما يعرف بـ (المسمار القرشلي) - المترجم.

وسنار مدينة مستطيلة الشكل وأطول أضلاعها يواجه النهر مباشرة ويلامس شاطئه الطيني اليابس.

والنهر الآن في حالة ارتفاع [1] ومجراه ضيق يتلوى - بين الجروف - إلى حد البصر، لكنه لن يلبث أن يبتلع تلك الجروف قريباً. أما عرض مجرى النهر المقابل لمدينة سنار فيمكن تقديره بنصف ميل.

تحيط بسنار سهول شاسعة تضم قرى مأهولة. وعلى بعد خمسة عشر ميلا غرب المدينة، ينتصب جبل متآكل القمة، هو الوحيد الذي يلفت النظر. وفي مقابل الجانب الأدنى من المدينة جزيرة صغيرة لطيفة يعيش سكانها على زراعة الخضروات وبيعها في السوق. أما الضفة الأخرى للنهر فتحتضن بقعاً خضراء عديدة تستغل لنفس الغرض[2]. وإلى ما وراء هذه البقاع، تبدو المنطقة - على الشاطئ الآخر - مغطاة بالأشجار

(١) يبدأ النهر في الإرتفاع أول يونيو.

(٢) هناك ثلاثة أسواق في سنار وجدناها - عند وصولنا - مهجورة. وبعد تأكيدات الباشا للباعة بفرض أسعار مجزية، بدأ السوق الرئيسي في الانتعاش، وامتلأ بلحوم الإبل والضأن والغنم والأسماك والملوخية (يكتبها هكذا: Meholakea) والليمون والبطيخ والغثاء والبامية (يكتبها هكذا: (Pamea) واللوبيا والذرة والدخن والتمباك والصمغ العربي. ويستجلب السوق: الأدوية والتوابل من جدة (وقد رأى الكاتب منها: الزنجبيل والشطة والثوم وكميات هائلة من النباتات العطرية، والأقمشة القطنية). وبالإضافة إلى هذه السلع، يعرض التجار المرافقين للجيش سلعاً أخرى للبيع هي: التبغ والبن والأرز والسكر والملابس والأحذية بأسعار تزيد ثلاثة أو أربع مرات عن مثيلاتها بالقاهرة. وقد أقام الأتراك مقاه بالسوق وأقام الإغريق - الذين صحبوا الحملة - المطاعم. وبذلك أصبح السوق مكاناً لطالب الطعام ومصدراً للأخبار ووسيلة لحصول الجنود على احتياجاتهم من اللحوم مقابل بنطلوناتهم (بسبب توقف صرف مرتباتهم منذ ثمانية أشهر.) أما الضباط الأتراك فقد كان كل واحد منهم يذرع المكان جيئة وذهابا في سحابة من دخان غليونه. وهناك ضجة عالية صادرة من المشترين والباعة: يحلفون ويكذبون فالبائع يطري بضاعته والمشتري حريص على فلوسه المصرية. وفي مكان آخر من السوق تجمع عدد من الناس حول جثة مقطوعة الرأس لرجل ارتكب جناية ما. وعلى مسافة من هذا التجمع، انخرط ثلاثون أو أربعون جندياً في ضرب وجر بعض العصاة والمتمردين على السلطة الجديدة بمطارق ثقيلة على ظهورهم لأنهم تجرأوا بالدعوة إلى الدفاع عن بلادهم وحريتهم. وعلى بعد من هذا المنظر، وقفت نساء من أهل البلد يتصايحن احتجاجاً على هذا العمل المميت قائلات: (لا يجوز الموت هكذا إلا للكفار.) وهن يحملن ضغينة عظيمة للنصارى ربما لأنهن لم يرين أحداً منهم قط.

والشجيرات حيث لمحت أربعة أفيال ترعى الحشائش.

ما رأيت خلال إقامتي آثاراً لمدينة قديمة في سنار واعتقد أنه لم تكن هناك أي مدينة من هذا النوع.

هذه هي الملامح الراهنة للمدينة التي كانت – بلا شك – غنية ومرفهة ومزدهرة، لكنها في خلال السنين الثماني عشرة الأخيرة – حسبما علمت – وقعت فريسة للفتن والفوضى.

في اليوم التالي لوصولنا المدينة، تم تحرير وختم شروط استسلام سلطان سنار لسلطة الباشا. وبموجب هذه الشروط، يسلم السلطان بلاده لنفوذ وزير الباب العالي: (محمد علي باشا). وفي اليوم الثالث، غادر أحد كبار رجال (محمد علي باشا) الخصوصيين سنار على ظهر مركب الباشا إلى القاهرة حاملاً وثائق الاستسلام. وكان هذا المبعوث الخاص قد لحق بمعسكرنا قبل شهرين توطئة للقيام بالمهمة المذكورة.

وخلال أيام عديدة – عقب وصولنا إلى سنار – كانت الأعاصير تعصف بالمعسكر مصحوبة بالرعود والبروق والأمطار الغزيرة. لذلك قرر الباشا إسكان الجنود في منازل المدينة والبقاء فيها. وخلال عشرة أيام من وصولنا تم توزيع الجيش على منازل المدينة ومساكن القرى الواقعة على ضفة النهر المقابلة. أما الباشا نفسه فقد اتخذ من أحد منازل السلطان الكبيرة سكناً له ومقراً لقيادته بعد أن تم تجهيزه لهذا الغرض.

بعد وصولنا بأيام قليلة، نقل أحد العبيد للباشا أن سلطان سنار ألقى

– قبل مجيئنا – بعض المدافع في النهر، فأمر الباشا بالبحث عنها. وقد عثر الغواصون على أربعة مدافع من الحديد الصلب تم سحبها إلى الشاطئ. وهي – كما بدت لي – مدافع سفن حربية تقليدية لا تحمل أي نقوش تدل على مكان صنعها. لكنني أظن أنه قد تم الحصول عليها بواسطة الأحباش كغنيمة من القوات البرتغالية ثم انتقلت – كما قال الناس – إلى أحد سلاطين سنار بعد الحرب التي وقعت بين البلدين.

وفي التاسع عشر من رمضان، أصدر الباشا أوامره لإحدى فرق البدو – التابعة للجيش – بمطاردة بضع مئات من عبيد سلطان سنار السود الذين هربوا – قبل وصولنا ببعض الوقت – وساقوا معهم عدداً من أحسن خيول السلطان. وفي اليوم الثالث والعشرين من الشهر عاد الجنود بعد أن قبضوا عدداً من العبيد يتراوح ما بين خمسمائة وستمائة من الجنسين. غير أن الملك (شاويش) ذهب إلى الباشا وأخبره أن أولئك المقبوضين ليسوا هم العبيد الفارين. فأمر الباشا بإطلاق سراحهم وإعادتهم إلى قراهم.

وفي ذات الوقت، بعث الباشا بخوجة (حشمت) على رأس ألف وثلاثمائة فارس تساندهم ثلاث قطع من المدفعية إلى أعالي منطقة سنار (ما بين البحر الأبيض والنيل) [١] لإخضاعها لسلطانه [٢].

(١) يكرر جورج انجلش نفس الخطأ بتسمية النيل الأزرق: النيل – المترجم.

(٢) قصة هذه التجريدة تجري كما يلي: "عند وصولنا إلى سنار، وبعد الاتفاق الذي تم بين الباشا والسلطان والذي خضعت بموجبه مملكة سنار لسلطة نائب الباب العالي، عمم الباشا منشوراً إلى شيوخ كل مناطق المملكة بمحتوى ذلك الاتفاق وأمرهم بالحضور إليه لتقديم فروض الطاعة غير ان زعيم الجبال الواقعة إلى الجنوب والجنوب الغربي من سنار لم يكتف فقط بعدم الاعتراف بسلطة الباشا، بل رفض مجرد استلام المنشور. وبناء على ذلك بعث الباشا بخوجة حشمت – أحد أقسى رجاله- في ألف وثلاثمائة فارس وفي معيتهم ثلاثة من العلماء (من ضمن الثلاثة عشر الذين رافقوا الباشا) لإقناع هذا الزعيم للاستماع إلى صوت العقل.

وفي السادس والعشرين من الشهر أرسل (ديوان أفندي) وتحت إمرته ثلاثمائة من الجنود - عبر النيل - [1] لتأمين الديار السنارية الواقعة على الضفة الشرقية للنهر.

كنت قد شرعت - بعد سبعة أيام من وصولنا - في تنفيذ قرار طلب العودة إلى القاهرة وهو قرار تخولني حالتي الصحية بالمضي في تقديمه للباشا. فقدمت بين يديه الحجج التي تقنعه بانتفاء حاجته الماسة لخدماتي خاصة بعد أن تم اجتياز المراحل الحرجة من الحملة وتتويجها بالانتصار النهائي. وأوضحت له أن الحالة المرضية المتكررة التي اعترتني أثناء الحملة، قد أضعفت جسمي وأن الإقامة في سنار أربعة أشهر أخرى - خلال فصل الأمطار - ستؤدي إلى هلاكي. وبما أن بقائي - حينها- لن تكون له جدوى، فقد التمست الإستجابة لطلبي. وفي ذات الوقت أعلنت له أنني سأكون رهن إشارته - بعد إنقضاء موسم الأمطار - متى ما رأى حاجة لاستدعائي. لكن الباشا تباطأ في الاستجابة لطلبي وظل رافضاً الطلب لعدة أيام. غير أن الأسلوب الذي اتبعته في مخاطبته بالأسباب العادلة والملحة التي تستوجب رجوعي إلى مصر، قد أقنعته بالتجاوب مع رغبتي. فوعد بأن أرافق المبعوث الذي ينوي أن يرسله إلى القاهرة بعد عودة خوجة (حشمت) من مهمته الحربية المذكورة.

في اليوم الثالث لعيد الأضحية [2]، خرج سلطان سنار في موكب

---

(١) يعيد جورج إنجلش تسمية النيل الأزرق: النيل - المترجم.

(٢) يتضح - هنا - جلياً أن جورج إنجلش يخلط بشكل فاضح بين عيد الفطر وعيد الأضحية.

احتفالي كبير يجوب المدينة. وكان يعتلي صهوة حصان فاره ويرتدي حُلة من حرير بلونين: أخضر وأصفر. وكان حاسر الرأس ويتظلل بشمسية ذات خطوط حريرية خضراء وصفراء يحملها أحد رجال الحاشية. وضم موكب السلطان رجال قصره وحرسه الذين ركبوا على هيئة ذات هيبة ثم تبعهم عوام الناس القاطنين في سنار رجالاً ونساء بالزغاريد التي كانت تتقاطع مع نغمات بوق حزين يتقدم الموكب، وينفخ فيه عازف – يبدو كما يتضح من نغماته – أنه كان يعاني من سعال حاد.

وفي السابع من شوال رجع (ديوان أفندي) إلى سنار بعد أن سحق حركات التمرد المقاومة لسلطة الباشا في الجهة الشرقية للمملكة وجاء بثلاثة من زعماء الثورة ضمن ثلاثمائة وخمسين أسيراً رقيقاً. وقد نقلت إلى أحداث هذه التجريدة العسكرية على النحو التالي: (تقدمنا دون أن تقابلنا مقاومة على مدى ثمانية أيام في اتجاه مشرق الشمس عبر بلاد جميلة خصبة التربة مكتظة بالقرى حتى وصلنا إلى بعض القرى الآهلة بالسكان قرب جبل يقال له: (كاتا). حيث اصطف أربعمائة أو خمسمائة رجل يعترضون طريقنا. كانوا مسلحين بالحراب ومصممين على الحرب أشد التصميم. وعندما أحسوا بخطورة سلاحنا الناري عليهم، فروا لائذين بالجبل. فحاصرناهم ومزقناهم شر ممزق وقبضنا على ثلاثة من زعمائهم وأسرنا كل من وقع في قبضتنا من أهل القرى ثم قفلنا راجعين).

عندما سألت محدثي إن كان للماء وجود وفير بعيداً عن النهر، أجابني

قائلاً إنه رأى آباراً عديدة في كل القرى المنتشرة بتلك الناحية بالإضافة إلى النهيرات والجداول المنحدرة - في هذا الموسم - من الجبال. وقد خاضت القوات نهرين صغيرين (لعلهما الدندر [١] والرهد [٢] وأضاف محدثي أن تلك المنطقة غنية بالطيور الجميلة والحشرات. وقد جلب الرجل معه خنفساء صَغيرة قرمزية اللون ناعمة الملمس. ووصف سكان تلك المنطقة بأنهم قوم مسالمون وكانوا يتساءلون عن سبب مجيئنا إلى سنار لخلق المتاعب لهم.

أمر الباشا بشنق اثنين من الزعماء - المقبوض عليهم - في ساحة السوق بسنار. فقابلا الموت بثبات نادر. لم ينطق الأول إلا بالشهادة: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.) وأخذ يرددها حتى وقوفه تحت حبل المشنقة. أما الآخر - الذي يدعي عبد الله - فقد أخذ يسب ويلعن ويحقر شانقيه بقوله (أيها اللصوص والقتلة)، وظل يرددها إلى آخر رمق ثم بصق في وجوههم قبل أن يصمت إلى الأبد [٣]. وأما الزعيم الثالث فقد أبقى عليه ليرسل أسيراً إلى القاهرة.

أثناء إقامتي في سنار حاولت أن أحصل على معلومات من أهالي البلاد ومن تجار القوافل القليلين - الذين لهم صلة بالبحر الأبيض والنيل -

(١) يوردها في النص هكذا: Ratt

(٢) يوردها كهذا: Dandar

(٣) اعترف أنني قد صدمت وشعرت بالاشمئزاز من تصرف الباشا خاصة وقد كان أبدى لمسات إنسانية إبان مروره بالمناطق الأدنى من النهر مما كان سببا رئيساً في استسلامها له. وكان العذر الذي راج في المعسكر أن ذلك التصرف سيرهب من تحدثه نفسه بالعصيان والتمرد ويمنع المزيد من إراقة الدماء. وقد يتفق ما حدث مع التقاليد العسكرية الصارمة لكنني أشعر - تجاه ذلك - بنفور عظيم. وعلى كل حال فقد تصرف الباشا وفق نصيحة السلطان ذاته.

والذين يرتادون سوق المدينة. فكانت المعلومات التي توصلت إليها هي: أن منبع نهر (أديت). الذي يطلقه أهالي سنار على نهرهم [1]، هو (جبال القمر) التي تقع على مسيرة ستين يوماً بالجمال [2] إلى الجنوب من المدينة. وتصب نهيرات عديدة – في مجرى النهر – تنحدر من الحبشة ومن الجبال القائمة جنوبي سنار، على مسافات متباعدة. ويزعمون أن مجرى(البحر الأبيض) يسير موازياً – تقريباً – لنهر (أديت)، لكن نبعه يتوغل في جبال القمر بما هو أبعد من منبع (أديت) ويقولون إن (البحر الأبيض) يبدو واسعاً عند النقطة التي عبر منها الباشا لأنه يتغذى بثلاثة أنهار أخرى: أولها ذلك الذي يأتي من الجنوب الغربي، والاثنان الآخران ينبعان من شرق الجبال الواقعة إلى جنوب سنار [3] . وعندما سألتهم عما إذا كان (البحر الأبيض) يجري سالكاً ولا تعترضه الجنادل والشلالات. أشاروا إلى شلال في مكان يسمى (شلك) يصعب اجتيازه بالمراكب [4] وهو يقع على بعد مسيرة خمسة عشر يوماً قبل التقاء البحر الأبيض بنهر أديت، (أي جنوب المكان الذي عبرنا منه البحر الأبيض). وعندما سألتهم عن إمكانية تتبع ضفاف البحر الأبيض وضفاف النهر الذي يصب فيه من جهة الغرب للوصول إلى مدينة تسمى (تمبوت) أو (تمبكتو)، أجابوني

---

(١) يعرفه جورج إنجلش بـ : (نيل بروس) – المترجم.

(٢) يسير الجمل المحمل بسرعة ١٥ أو ١٨ ميلا في اليوم.

(٣) أخبروني بأسماء هذه الأنهار فدونتها على ورقة خصصتها لتسجيل أسماء بعض ملوك البلاد. لكن هذه الورقة ضاعت من بين أوراقي مما سبب لي ضيقاً عظيماً.

(٤) يؤمن أهالي سنار – أيضا – بأن مراكبنا لم تستطع اجتياز الشلال الثالث. ولهذا لا يمكن الاعتماد على صحة فكرتهم الخاصة بشلال (شلك).

بأنهم لا يعرفون المدينة المذكورة لأنهم لم يتجاوزوا في سفرهم - غرباً - كردفان ودارفور.

هذا كل ما علمت، لكنني أميل إلى الزعم بأن المجرى الرئيس للبحر الأبيض لا يمكن أن يغذيه رافد على نفس خط العرض للرافد الذي يغذي (أديت) نظراً إلى أن ارتفاع منسوب البحر الأبيض قد بدأ - على الأقل في هذا العام - قبل عشرين يوماً من بداية ارتفاع منسوب (أديت). كما أن اختلاف لون مياهه عن لون مياه(أديت) يدل على تدفقه عبر تربة مختلفة عن تلك التي يتدفق عبرها (أديت). والسؤال الشائق عن: (هل يتصل النيجر بالبحر الأبيض؟) يحتمل أن يتقرر مصيره في غضون مدة تسبق نهاية عام قادم، إذ أن الباشا - يحتمل - أن يبعث بحملة استكشافية إلى أعالي ذلك النهر. ثانياً: إنني أميل إلى الاعتقاد بأن المجرى الرئيس لـ(أديت). أو (نهر بروس) لا ينبع من الحبشة وإنما من الجبال التي أشار إليها أهالي سنار.

فبملاحظة حجم المياه التي تمر بسنار - الآن - حيث لم يبلغ منسوبها ثلثي الحجم المعتاد أثناء موسم الأمطار لا يمكنني أن أصدق أن المصدر الرئيس لنهر كهذا يقع على بعد ثلاثمائة ميل - بحسب - من سنار.

تسمى المنطقة التي تقع بين نهري (أديت) والبحر الأبيض: (الجزيرة)، لأن أنهاراً عديدة تنحدر من الجبال الجنوبية وتصب في مجرى البحر الأبيض و(أديت) - خلال موسم الأمطار - لتحصر تلك المنطقة بين المياه الجارية.

وأنا على يقين بأن المزاعم المتداولة حول مناخ هذه المنطقة مبالغ فيها للغاية. لأن المنطقة - فيما عدا الفترة التي تهطل فيها الأمطار وما بعدها - سهل جاف، مرتفع، وليس شديد الحرارة - على الأقل بالنسبة للجسم - لأن مستوى ارتفاع سطح الأرض في بلاد النيل يتزايد بمئات الأقدام في اتجاه سنار عند النظر إليه من الديار المصرية. وهذا ما يثبته الانحدار الشديد لمياه النيل نحو مصر. كما أن الرياح الجنوبية والشرقية التي تهب على سنار تلطف الجو لأنها تأتي إما من جبال الحبشة أو من سلسلة جبال القمر الشاهقة. فقد كنت في سنار منتصف الصيف و لم أشعر - في أي وقت - بحرارة لا تحتمل شريطة أن أكون في الهواء الطلق أو تحت ظل. غير أن درجة الحرارة عالية - حقيقة - داخل الأكواخ والمنازل بسبب افتقار تلك الأكواخ والمنازل إلى التهوية.

إستقصيت - أثناء وجودي بسنار - حقيقة الذبابة التي أشار إليها (بروس) في يومياته، فنفى لي أهالي سنار معرفتهم [1] لها لكنهم أشاروا إلى دودة - تخرج من باطن الأرض في موسم الأمطار - لها لسعة سامة. أما أصناف الزواحف فكثيرة، حيث تمتلئ المنازل بالسحالي. والذي ينام على الأرض يحس بدبيبها وجريها على الجسم طوال الليل. وقد رأيت ثعباناً - لا أظن أن نوعه معروف - طوله قدمان ولا يزيد عرضه عن طول إبهامي، مخطط الظهر، أصفر البطن، أفطح الرأس. ولهذا الثعبان أربعة

(١) من المحتمل أن تكون هذه الذبابة منتشرة في المنطقة التابعة لمملكة سنار والواقعة على الشاطئ الأخر من نهر (أديت).

أرجل لا يبدو أنها ذات نفع له لأنها قصيرة وتتدلى من جانبي بطنه. وكل حركاته تؤدي بالطريقة المعتادة عند الثعابين: (الزحف بخفة وسرعة على البطن.)[1]

. . لا أشعر أنني مؤهل للحكم على شخصية المواطن السناري، ولكنني اعتبر سكان العاصمة أناساً كريهين للغاية. إنهم جشعون إلى حد زائد وميالون للابتزاز وغدارون وقذرون وقساة القلوب [2] والرجال – عموما – ذوو سحنة صفراء، طوال وأجسامهم متناسقة لكن النساء أقبح من رأيت على وجه الأرض، ولعل السبب في ذلك: إلزامهن بأداء كافة الأعمال الشاقة.

وأطفال هؤلاء الناس– وينطبق ذلك على أطفال كافة القبائل القاطنة في أعالي النيل – يظلون عراة إلى مشارف سن البلوغ. وتميز الفتاة البكر بـ:(الرحط) وهو تنورة قصيرة من الجلد لا تغطي إلا جزء من أسفل البطن، تماماً كما كان حال أمنا (حواء) عندما هبطت إلى الأرض.

غير أن النساء المتزوجات –عموماً – يرتدين ثياباً طويلة خشنة من

---

(١) رأيت هذا الحيوان العجيب في المنزل الذي كنت أقيم فيه بسنار. فنبهت رفيقي (خليل أغا) لينظر إليه. فصاح قائلاً: (يا ربي! ذلك الثعبان له أرجل). ثم نهض بسرعة وحمل عصا لقتله. لكن الثعبان تفادى الضربة واختبأ بين الأمتعة ثم لاذ بشق من شقوق الحائط الطيني للمنزل. وعندما عدت إلى مصر علمت أن نقشاً لهذا الحيوان قد وجد على جدار أثري مصري قديم.

(٢) يصيد أهالي سنار القطط والفئران ويأكلونها بعد طهيها. والموسرون منهم يشترون الخنازير البرية ويقومون بتسمينها قبل طهيها وأكلها. وكنت قد سمعت في المناطق الأدنى من النهر أن أهالي سنار لا يتورعون من أكل لحم الخنزير، غير أنني رفضت أن أصدق أن المسلمين يمكن أن يفعلوا ذلك بمحض اختيارهم. ولكنني – بعد وصولي لسنار – اكتشفت أني كنت مخطئا. فالخنازير البرية تصطاد في المنطقة الجبلية كثيفة الأشجار قرب الحبشة، وقد رأيت منها قطيعاً صغيراً في منزل أحد ملوك سنار يتم تسمينه للتلذذ بلحمه ضمن الأصناف الموضوعة على مائدة الطعام.

القطن تغطي عامة الجسم أما أثناء ساعات العمل فيربطن ثيابهن حول خصورهن.

الصناعات التي يعرفها أهالي أعالي النيل محدودة وتنحصر في الأدوات الآتية:

الفخار لصناعة الأدوات المنزلية، وأعـواد النبات لعمل الأنابيب المجوفة التي يصنعون منها غليون التبغ والمزامير الخ. . والقطن لصناعة الملابس، والسلال الصغيرة دقيقة الصنع لحمل الأغراض المختلفة (الأدوات، الخناجر. . الخ. .) ثم هناك أدوات الزراعة. (المعاول والمحاريث والسواقي) ولوازم الخيول من سروج جيدة الصنع، ومهاميز على الطراز الأوربي مصنوعة من الفضة بالنسبة لعلية القوم وتختلف عن مثيلاتها التركية التي تصنع من الحديد. ثم هناك الأسلحة كالسيوف ورؤوس الحراب الحديدية والدروع التي تصنع من جلد الفيل. وتصنع النساء أبسطة من أعواد النبات جميلة للغاية.

وهناك تشابه في العادات المنزلية بين كل الناس القاطنين على ضفاف النيل من أسوان إلى سنار [1] رغم اختلافهم في الملامح والشخصية. فسكان منطقة (السكوت) و(بربر)، أقل سواد بشرة من النوبيين أو الدناقلة والشايقية. وهم أيضا صرحاء وذوو سلوك جذاب. غير أن الدنقلاوي لا يهتم بالنظافة وكسول ومؤذ، وهي نفس صفات الشايقي فيما عدا انه غير

(١) يورد (بركهاردت) المعروف بـ (شيخ إبراهيم) في كتابه: (أسفار في بلاد النوبة) أفكاراً عديدة حول أخلاق وعادات سكان النيل في ما وراء أسوان.

كسول. فالشايقي إما أن يكون مزارعاً نشطاً أو قاطع طريق فاتك. ويتفرد الشايقية بصفة أنهم أوعى سكان أعالي النيل قاطبة وأكثرهم استنارة. ففي كل قرية كبيرة يتلقى الصبيان دروساً في القراءة والكتابة العربية، كما يتلقون دروساً في أركان الإسلام الخمسة والشريعة الإسلامية. ومن المدهش أن تجد من بين هؤلاء الناس من هو أقل علماً ولكنه يستطيع أن يتحدث في الربوبية كأنه اسحق نيوتن [1] أما سكان منطقة الشلال الثالث فأقل نشاطاً ولكنهم شرفاء وفضلاء. وأما سكان منطقة بربر فيتميزون بأنهم أكثر الناس مدنية في سائر أعالي النيل، بينما يتصف سكان منطقتي شندي والحلفاية بتجهم الوجه والعبوس والعدوانية. وبالنسبة لمنطقة سنار فإن سكان القرى – التي مررنا بها – قوم محترمون بالمقارنة مع سكان العاصمة.

وفي كل المناطق التي ذكرنا، يتفق الناس في صفة عامة – مثل الهنود الحمر – هي الشجاعة والاعتداد بالذات. فالزعماء – عند مجيئهم لتحية الباشا – لم يكونوا ينتظرون الإذن لهم بالجلوس وجها لوجه مع حضرته ولا يتهيبون الحديث معه، تماماً كما يفعلون تلقائياً – بحكم العادة – مع ملوكهم. وبنفس البساطة المباشرة يلقون الأسئلة الصعبة على الباشا كقولهم: (أيها الشيخ العظيم أو: أيها الملك الجليل، ماذا جنينا عليك وعلى بلادك حتى تقطع الفيافي والبحار لتغزونا؟ هل ضربت المجاعة دياركم

---

(١) السير اسحق نيوتن (١٦٤٣ – ١٧٢٧) رياضي وفيزيائي إنجليزي. وضع قانون الجاذبية العام وقوانين الحركة – المترجم.

فدفعتكم لطلب الغذاء في بلادنا؟. .). . وما يشبه ذلك من الأسئلة.

وفي الرابع عشر من شوال، عاد (خوجة حشمت) إلى سنار وهو يسوق حوالي ألفين من الأسرى الرقيق أغلبهم من النساء والأطفال. وقد بلغني أن تجريدته كانت كما يلي:

سار (خوجة حشمت) بقواته - مسرعاً - لمدة عشرة أيام في الاتجاه الجنوبي - الغربي من سنار العاصمة، عبر منطقة مأهولة بالسكان دون أن يواجه أي مقاومة حتى بلغ جبال (بوكي) حيث يسكن الوثنيون الذين رفض زعيمهم تسلم مكتوب الباشا. وقد تمترس القوم بجبل عصي إلا أن المدفعية أمطرتهم بقنابلها. وبعد مقاومة يائسة تيقن القوم أن حرابهم وسيوفهم التي تحملها أياد ماهرة وتدفعها قلوب صلدة، لن تقوى على صد السلاح الناري. فانحازوا إلى جبل آخر وراء الجبل الأول. لكن المدافع والبنادق طردتهم إلى جبل ثالث، فتبعتهم قوة الخيالة بقيادة (خوجة حشمت) حتى استسلم منهم ألف وخمسمائة.

أما الذين فروا فقد احتموا بجبل شديد الإنحدار عصي على الفرسان. وعندما أحس (خوجة حشمت) أنه أثبت للمقاومين -بما فيه الكفاية- أن صمودهم مستحيل، وأن قواته قد عانت من شدة الأمطار، وأنه قد أخلى القرى من سكانها، قفل راجعاً إلى سنار. وفي طريق العودة كان عليه أن يخوض العديد من النهيرات العميقة المنحدرة - في موسم الأمطار - من الجبال، في مسيرة أرهقت الرجال وأجهدت الخيول الأصيلة.

وأهالي (بوكي) قوم جبليون، شجعان، طوال، مليحون. وهم وثنيون (من عبدة الشمس) التي يعتقدون أن النظر إليها ذنب عظيم. ويشبه الأسرى - الذين جاء بهم (خوجة حشمت) - من حيث الهندام، همج أمريكا حيث أنهم يتحلون بعقود الخرز والأسورة والخواتم والأقراط المصنوعة من الحصي والعظام والعاج. وهم ذوو بشرة سوداء وأخلاقهم وتصرفاتهم غريبة وأسلحتهم مدهشة: فهي تتكون من خوذات حديدية محكمة وأنيقة، ودروع من الجلد لها غشاء من حديد، وحراب طويلة من طراز مستحدث، وأسلحة يدوية تطابق الأسلحة التي كان يستعملها الفرسان[١] الإنجليز خلال القرن الثامن عشر الميلادي. وقد عرضت عليّ هذه الأسلحة بواسطة الأتراك باعتبارها ذات خطر في المواجهات الفردية. أما معرفتهم بالأسلحة النارية فمعدومة ورغم ذلك يصمدون أمامها بجسارة فائقة. وقد قالوا: - كما علمت - إن البندقية (سلاح الجبان الذي يقف على مسافة آمنة من عدوه، ثم يقتله بضربة خفية[٢]).

---

(١) حرس وطني من الفرسان الإنجليز أنشئ عام ١٧٦١ من اليوامنة (وهي طبقة اجتماعية إنجليزية) - المترجم.

(٢) تقع جبال (بوكي) جنوب سنار على الحدود مع مملكة فازوغلي (يوردها هكذا: Fezoueli) وعلى بعد مسيرة عشرين يوماً. وكان الظن السائد أن جبال فازوغلي غنية بمناجم الذهب باعتبار أن مياه النهيرات الجارية، تجرف معها حبيبات هذا المعدن في موسم الأمطار. وقد أخبر أحد الأهالي إسماعيل باشا أنه شاهد قطعة من الذهب - وجدت في تلك الجبال - تزن قاع (النارجيلة) الفضية لسعادته (أي بقطر طوله ست بوصات). ومن المؤكد وجود الذهب في تلك الناحية إذ أن النساء اللائي تم أسرهن في (بوكي) كن يتحلين بخواتم وأسورة ذهبية كان الجنود ينتزعونها من سواعدهن. وقد قرر الباشا زيارة فازوغلي عقب نهاية فصل الأمطار لاستكشاف عروق الذهب التي تجرفها المياه. فإذا نجح في مهمته، شرع في التعدين.

الفصل السابع

العودة إلى مصر

الفصل السابع
العودة إلى مصر

في السابع عشر من الشهر، غادر المبعوث المنوط به حمل نتائج الحملة - إلى القاهرة - بالمركب إلى بربر، ثم ليتخذ طريقه عبر الصحراء إلى مصر. ووفقاً للوعد الذي قطعه الباشا معي، فقد رافقت ذلك المبعوث في رحلته. وبعد خمسة أيام وصلنا لبلدة (نصر الدين) بمنطقة بربر. ومما ساعد على تقليص زمن الرحلة أن المركب كان يبحر في اتجاه التيار وبمساعدة ستة عشر من البحارة [1].

لم يكن منظر المنطقة - التي مررنا بها - مبهجاً لأن القرى كانت تقع على مبعدة من النهر مما جعل ضفافه تبدو جرداء ومهجورة. وقد رأينا أعداداً كبيرة من أفراس البحر كانت ترفع رؤوسها من الماء ليلاً على مقربة من المركب، مما أغرانا باطلاق النار عليها ولكن دون أن نصيب أياً منها [2].

توقفنا في شندي - ليلاً - لمدة ساعة بغرض نقل أوامر الباشا للحامية التركية الصغيرة بالمدينة [3]. وكنا قبل بلوغنا شندي، قد مررنا بنقطة

---

(١) اعتاد بحارة النيل التجديف على نغمات الأهازيج الشجية في الليالي المقمرة الهادئة. يرفع (الريس) عقيرته بلحن يقول: يا رجال.. إلى الأمام. فيجيبه البحارة بقولهم: (بعون الله).. وهكذا.

(٢) فرس البحر حيوان ضخم لا يوجد - كما أظن - إلا في مياه الأنهار الدافئة بالعالم القديم.. طوله أثنا عشر قدما وله أقدام كأقدام الفيل ورأس لا يشبه رأس أي حيوان آخر، وفم واسع وجلد لا يخترقه الرصاص. ويتغذى بالأسماك والحشائش. وهو حيوان شرس خاصة عندما يكون جريحاً.

(٣) مررنا بالطرابيل في المساء نفسه ولكننا لم نتوقف لمشاهدة آثارها نسبة لطبيعة الرحلة التي تتطلب سرعة وصول المبعوث إلى مصر.

إلتقاء نهر (أديت) أو نيل • بروس) بالبحر الأبيض حيث بدت لنا المنطقة التي تليه – في اتجاه المصب – بديعة المنظر. فنهر (أديت) أو نيل (بروس) يتداخل مع البحر الأبيض بزاوية قائمة، غير أن كثافة ماء الأخير تجعل من الصعب امتزاجه مع ماء النيل إلا بعد أميال – شمالا – من نقطة الإلتقاء.

ومياه نهر (أديت) داكنة ومعتكرة خلال موسم الفيضان وذلك على نقيض مياه البحر الأبيض البيضاء. ولذلك تبدو الجهة الشرقية من النهر – ولعدة أميال في اتجاه المصب – قاتمة بينما تبدو الجهة الغربية منه بيضاء. وهذا اللون الأبيض لمياه البحر الأبيض ناتج عن مروره عبر طبقة أرض طينية بيضاء.

وعند نقطة التقاء البحر الأبيض ونهر (أديت) تعترض المجرى جزيرة[١] تجاور سلسلة من الصخور، مما يؤدي إلى إبطاء سرعة تيار البحر الأبيض. ولولا هذا الوضع الطبغرافي لعجر نهر (أديت) عن مواصلة مشواره نحو المصب. وفي المنطقة الواقعة بين الحلفاية وشندي يجري النهر في خط مستقيم عبر ممر ضيق موحش تحيط به تلال صخرية عالية [٢] وتتحول مياهه إلى اللون الداكن ويزداد عمقه وينطلق مندفعاً بسرعة هائلة إلى مسافة إثني عشر أو خمسة عشر ميلا. وبعد أن يتجاوز هذا المكان، يتسع عرض النيل – مرة أخرى – إتساعاً هائلاً ويجري عبر سهل اخضر شاسع لا يحده إلا خط الأفق. أما ضفتاه فممتلئتان لكنهما – حتى الآن – لم تفيضا بالمياه.

---

(١) جزيرة (توتي) – المترجم.

(٢) الشلال السادس (شلال السبلوقة) – المترجم.

وعلى مسافة ثلاثين ميلاً - تقريباً - قبل أن نصل إلى بلدة (نصر الدين)، مررنا بمصب البحر الأسود [1] (من ناحية ضفته الشرقية) وهو آخر ما يصب في النيل من أنهار ويبلغ عرضه حوالي ثلثي الميل عند مدخل المصب. أما عرض النيل شمال نقطة إلتقائه بالبحر الأسود فيزيد عن ميلين في هذا الوقت من العام.

. . خلال اليومين الأولين من الرحلة، واجهنا عواصف عنيفة وأمطاراً غزيرة. لكننا بعد أن اجتزنا أراضي سنار تظللنا بسماء صافية.

عند وصولنا إلى بلدة (نصر الدين)، لم نتحصل على حاجتنا من الإبل سوى ما يحمل مبعوث الباشا وحارسيه. وبذلك كان على أن أبقى في (نصر الدين) لمدة خمسة أيام قبل أن أجد قافلة مسافرة إلى مصر.

وفي الثامن والعشرين من شوال، غادرت (نصر الدين) إلى مصر في رفقة قافلة جاءت من سنار يقودها جندي تابع لـ: (قاضي العسكر [2]) التابع لجيش إسماعيل باشا. كانت القافلة تتكون من اثنين وعشرين جملاً وعدد من العبيد يملكهم قاضي العسكر بالإضافة إلى أربعة خيول أصيلة تخص الباشا.

بدأنا الرحلة قبل الظهر بثلاث ساعات، وبعد مسيرة ثلاث ساعات أخرى توقفنا عند قرية (الشرفي) للحصول على علف للجمال والخيول تتقوى به لعبور الصحراء عن طريق يمر خارج القرية.

---

(١) نهر أتبرا (عطبرة) - المترجم.

(٢) هو القاضي الذي يرافق الجيش التركي - عادة - للفصل في القضايا المدنية التي تحدث بين العساكر.

. . القرى التي مررنا بها عديدة ولها مبان جيدة من الطوب الأخضر. وعلى جانب النهر يبدو سطح الأرض مستويا.

مكثنا في (الشرفي) حتى الصباح لأن القائم على أمر القافلة لم يتمكن من جميع الذرة الذي تحتاجه حيواناته علفا. فاتجهنا إلى قرية (الحصا) على مسيرة ساعة من (الشرفي) حيث بقينا حتى صبيحة اليوم التالي.

ومع بزوغ شمس الثلاثين من الشهر – وفي جو رطب ورائق – ركبنا رواحلنا وانطلقنا عبر الطريق الذي يلامس أطراف الصحراء. فمررنا بسلسلة من القرى ذات مبان جيدة آهلة بالسكان، نائية عن النهر بمسافة ميل واحد. وتوقفنا – عند منتصف النهار – في قرية يقال لها (العبيدية) مكثنا فيها حتى قبيل الغروب بساعة ونصف الساعة. ثم انطلقنا في مسيرة لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة لنتوقف عند قرية شبه خربة قضينا فيها ما تبقى من الليل. والسبب في ترحالنا البطئ وتوقفنا المتكرر هو أن يتمكن رئيس القافلة من الحصول على العلف الكافي الذي تحتاج إليه رواحلنا عبر الصحراء. وكان يمكن أن يحقق مبتغاه لو أنه رضي بالسعر الذي يطلبه البائع لكن تسويفه وطمعه أعماه عن هدفه حتى اضطر – أخيراً – مكرها أن يستسلم للضغوط التي فرضتها ظروف مواصلة الرحلة، ويدفع الثمن المطلوب.

ومع شروق شمس غرة ذي القعدة. واصلنا الرحلة إلى مسافة تقدر بمسيرة ساعتين حيث أنخنا رواحلنا عند قرية تسمى (قنتي) [1].

---

(١) ربما خلط جورج إنجلش بين اسم هذه القرية واسم بلدة أخرى إلى الشمال - المترجم.

كانت النقطة التي اجتزناها – منذ الأمس – صحراوية تجاور ضفة النهر ولا تحوي إلا أراض قليلة صالحة للزراعة. وفي هذه المنطقة بلغنا – في الليلة الفائتة – أن محمد بيه [١] (الذي كان يقود جيشا مكونا من خمسة آلاف رجل قد قدم من مصر لفتح كردفان ودارفور) يعسكر على الضفة الأخرى للنهر.

استمر الجو رائقا ومعتدلا حيث مكثنا في (قنتي) حتى منتصف العصر قبل أن نواصل الرحلة – عبر صحراء قاحلة تمتد حتى حافة النهر وتتخللها صخور وحجارة سوداء من الجرانيت. ولم نر من الخضرة إلا ما يحف الضفاف من نبات قليل. أما النهر نفسه فيعج بالصخور والشلالات، لكنه في ذات الوقت يحتضن جزرا جميلة عديدة بعضها فسيح الأرجاء، خصب التربة وآهل بالناس والحرث. ويحكم هذه المنطقة التي تسمى بلاد الرباطاب [٢] – والتي تضم ثمانية وثمانين جزيرة وجروفا واسعة خصبة التربة – الملك (محمد الهِدَيْ) رجل مشهور بالشجاعة وحسن الخلق والكرم، ويقيم في جزيرة (مقرات) الواسعة التي يصل طولها – كما يقال – إلى ستين ميلاً [٣].

توقفنا قبل ثلاث ساعات من منتصف الليل على ضفة النهر حيث وصل إلى سمعنا خرير شلال ينبعث من صخور تسد المجرى فيما عدا

---

(١) يعرف – في تاريخ السودان الحديث – باسم: (محمد بك الدفتردار) – المترجم.

(٢) يوردها هكذا: (Rabutat) – المترجم.

(٣) المنطقة التي تقع على الشلال الثالث – بين الشايقية والرباطاب – تسمى على التوالي: المناصير، الزورة (يكتبها: Isyout)، الرباطاب.

ممر ضيق يقابل الضفة الشرقية. ثم واصلنا الرحلة في الصحراء – بعد أن استراحت رواحلنا ساعة ونصف الساعة، وتناولنا خبزاً شربنا عليه من ماء النيل المعتكر – من غير توقف حتى قبيل ظهر اليوم الثاني بساعة.

وكان هدفنا أن نصل إلى نقطة تكون فيها اليابسة زاوية مع النهر. وعندما توقفنا تحت ظل نخلات باسقات قرب الشاطئ. تمتعنا بالنظر إلى جزيرة (كانداسي) [1] التي ادعى (خليل أغا) أنه رأى في جوارها هرما بحالة جيدة لم تقع عيناه على مثله في هذه المنطقة ولربما أخذت هذه الجزيرة إسمها من (الكنداكة) التي هزمت الرومان في عهد (نيرو) ثم قبرت – عند وفاتها – في الهرم المذكور.

وبعد أن أبى أهالي المنطقة أن يبيعوا لنا لحما نقتات به مقابل المال أو الصابون (وهو ما يحتاجون إليه بالفعل) [2] غادرنا المكان في اليوم الثالث من ذي القعدة وذلك قبل ساعتين من منتصف الليل. وكان الطريق صحراوياً يبتعد كثيرا عن ضفة النهر. وقبل ظهر اليوم الثاني بثلاث ساعات وصلنا إلى قرية (أبوهشيم) المقابلة لجزيرة خضراء مبهجة وقد أخبرني (خليل أغا) أن النهر يضم سلسلة من الجزر في منطقة الشلال الثالث [3].

لم أجد – في القرية – ما يجعل طعامي المكون من الخبز والماء مستساغاً

---

(١) لم أقف على الاسم الحالي المتداول لهذه الجزيرة – المترجم.

(٢) لأن أهالي هذه المناطق لا يقبلون القرش المصري، فقد أحضرت معي صابونا من سنار (يبيعه التجار الإغريق المصاحبين للحملة) كوسيلة للمقايضة لأنه مفضل على سائر النقود فيما عدا الدولار وعملة القسطنطينية الذهبية.

(٣) اتخذ (خليل أغا) – وهو من مواطني نيويورك – عمامة قبل تحرك حملة إسماعيل باشا من القاهرة بأسابيع قليلة. وعندما علم بمصاحبتي للحملة طلب مني أخذ الإذن من الباشا ليكون رفيقي. وهو – ربما – يكون أول شخص يسافر من (رشيد) إلى (سنار).

سوى قليل من التمر. وزاد الأمر سوء التهاب عينيَّ بسبب أشعة الشمس الحارقة. وتضاعفت آلام عينيَّ ليلا وتقيحتا. وقبل منتصف الليل بساعتين واصلنا المسير عبر ارض تتخللها جبال صخرية عديدة لا تبعد كثيراً عن النهر. وفي ظني أن هذه الجبال تحوي آثاراً قديمة تدل عليها قطع الطوب الضخمة جيدة الصنع التي جلبها سكان القرية من هناك.

وخلال أربعة أيام من المسير، لم نشهد في المنطقة التي مررنا بها – في هذه الضفة من النهر – أي أثر للزراعة سوى ما ينمو على الجروف. لكن الجزر العديدة الشاسعة الجميلة – في هذه الناحية من النهر – تعوض السكان عن القحط الذي يكتنف الضفاف. وفي كل مرة نتجه فيها إلى النهر طلبا للراحة وتناول الطعام، تقابلنا جزيرة أو أخرى هناك. وفي هذه المحطة كنت محظوظاً بمافيه الكفاية إذ تمكنت من شراء جَدْي صغير بثمن باهظ بلغ اثني عشر قرشاً، وبذلك ذقت طعم اللحم بعد أربعة أيام من القرم. وفي المساء عالجت التهاب عيني باستعمال مكمدات من مادة التمر أراحتني قليلا. ثم واصلنا الرحلة بعد ثلاث ساعات من منتصف الليل حتى قبيل ظهر الخامس من ذي القعدة بساعة واحدة. وقد كنا نتوقع أن نصل إلى مكان يفارق فيه الطريق ضفة النهر ويلج الصحراء الإفريقية الشرقية الكبرى، لكن رداءة الجو وارتفاع الحرارة والرهق الذي أصاب رواحلنا حتم علينا أن نتوقف لنستريح على الشاطئ. في هذا المكان نفق جملان من جمال القافلة.

ظلت طبيعة الطريق كما هي: سهول تتخللها جبال صخرية ورملية، تمتد حتى حافة النهر. . وجزر متتابعة بهيجة المنظر. وقد أزعج نفوق الجملين رئيس القافلة فبقينا في هذا المكان إلى منتصف نهار اليوم التالي قبل أن نشرع في اجتياز الصحراء. أثناء مكوثنا في هذا المكان، كلفت شخصاً بشراء بعض الذرة والدقيق والتمر من الجزيرة المقابلة، فاجتاز الماء سباحة ولم يأتنا إلا بقليل من التمر، ولذلك كان علي أن أوطن نفسي على ولوج الصحراء بزاد قليل. وكنت قد احتطت لهذا الأمر بتجهيز مؤونة من (بربر) تكفي لمدة خمسة عشر يوماً وفقاً لمعلومات تؤكد أننا سنقطع الصحراء في اثني عشر يوما نحل بعدها على القرى الواقعة على ضفة النيل، فنصل إلى (أسوان) بعد أربعة أيام. ونسبة للتأخير الذي حدث فقد تعذر علينا أن نصل إلى حافة الصحراء إلا بعد تسعة أيام من مغادرتنا بربر. ففي السابع من الشهر – وقبيل الغروب بساعتين – تحركنا من نقطة وقوفنا، وبعد مسيرة ساعة واحدة في طريق مواز للنهر، وصلنا إلى مكان ينحرف فيه النيل – فجأة – إلى جهة الجنوب الغربي. في هذا الموقع نبهنا دليل القافلة إلى ضرورة ملئ قرب الماء استعداداً لدخول الصحراء.

ظللنا في نقطة انحراف النيل حتى عصر اليوم الثامن من الشهر حيث قضينا الليلتين السابقتين وأيدينا على أسلحتنا نترقب قطاع الطرق الذين قيل إنهم هاجموا بعض القوافل مؤخرا. لكننا لم نتعرض لأي إزعاج.

كانت المنطقة الصحراوية التي تقابل النيل تكتظ بأشجار الدوم

وتسكنها أعداد هائلة من القرود التي تتخذ من ثمار هذه الأشجار غذاء لها. وثمرة الدوم تتكون من جوزة كبيرة الحجم لها طبقة خارجية – تشبه في لونها – كعكة الزنجبيل المحمصة. لكنها صلبة للغاية بحيث يتعذر قضمها إلا على أسنان القرود والبدو.

. . على بعد مسيرة ساعة من موقعنا الحالي، يقوم مخيم للبدو بجوار قبة لرجل صالح حيث كدس الأهالي ورجال القوافل سروج إبل وحمير على قبره طلبا لشفاعته يوم الدين.

. . بعد أربع ساعات من ظهر اليوم الثامن للشهر، فارقنا ضفاف النيل وولجنا الصحراء حاملين أقصى ما نستطيع من ماء. وقد ملأت أربعة قرب لاستعمالي الخاص ولاستعمال (خليل أغا) وعبدي الأسود [1].

سرنا حتى قبيل الليل بساعة حيث توقفنا لمدة ساعة لإراحة الجمال وتناول قليل من الخبز. ثم واصلنا المسير حتى الصباح حين انهار احد خيول الباشا وأبى أن يمشي. وهنا كان من الضروري أن نتوقف كي ينال هذا الحيوان المسكين قسطاً من الراحة.

ووجدناها فرصة نستلقي فيها على الرمال وننام ساعتين نوماً عميقاً. ثم استيقظنا على صوت من ينادي باستئناف المسير. فواصلنا الترحال حتى قبيل الظهر بساعتين حيث أنزلنا رحالنا بسهل رملي تناثرت فيه شجيرات شوكية كانت أوراقها علفا للجمال. وأوينا نحن إلى ظل بائس

---

(١) عند عودتي إلى مصر منحت هذا العبد حريته مكافأة له على إخلاصه في خدمتي أثناء الحملة. وهو الآن جندي شجاع في جيش الباشا.

نتقي به حرارة الشمس العمودية ولكن هيهات كانت الشمس تتحرك ببطء نحو الغرب فتتحول ظلال الشجيرات - كل نصف ساعة - من مكانها، فنضطر إلى تغيير مكان الرقاد. وفي الحقيقة فإن النوم في مثل هذه الظروف ليس مستحيلا وحسب ولكنه ضار ومهلك، لأن أشعة الشمس تسبب للنائم - بالتأكيد - الحمى الدماغية.

. . خلال تسفارنا في الأيام الأولى، مررنا بسهل مستو من الرمل والحصى تتناثر فيه جبال من الجرانيت الأسود حيث لا يسمع إلا أزيز الريح، غير أن الجو كان صحوا بالنهار، بارداً بالليل [1].

. . بحلول وقت العصر، تقدمنا ثانية والتزمنا توقيتاً محدداً للوقوف واستئناف المسير مثلما فعلنا بالأمس (مرة لمدة ساعة قبل منتصف الليل بساعتين وأخرى لمدة ساعة ونصف قبيل بزوغ الشمس).

ظلت تضاريس الصحراء تترى بملامحها الرتيبة حتى انتصف الليل. ثم ولجنا - بعد ذلك - ممرات ضيقة تتلوى بين جبال من الجرانيت الأسود. . وعندما اجتزنا أحد الممرات - وقبيل ولوجنا لممر ثان يبعد عن الأول بفرسخين شمالا - أفادنا الدليل إننا نقترب من (بئر ابشيش) [2]. وسرعان ما حللنا بمكان تنتشر فيه شجيرات هنا وهناك. عندئذ توقفت القافلة وملأ

---

(١) كانت الرياح تهب من جهة الشمال نهاراً وهو الاتجاه الذي التزمناه منذ أن فارقنا النهر وإلى أن عدنا إليه من جديد، مما أتاح لنا الاستمتاع بنسيم منعش. غير أن هواء الصحراء كان شديد الجفاف بحيث لم يبق من جسدي موضع طري إلا رأسي الذي لففت حوله عمامة وقته من حر السموم. بالرغم من ذلك فإن الحرارة - في الصحراء - كانت محتملة حين لا يتعرض المرء لأشعة الشمس وذلك على عكس الحال في (أسوان) حيث كانت الحرارة لا تطاق.

(٢) كان دليل القافلة يعتمد في تحديد إتجاه الرحلة - ليلا - على النجم القطبي. أما في النهار فيتتبع علامات أرضية معروفة لديه.

بعضنا القرب التي يحملها من ماء البئر الواقعة عند سفوح الجبال على بعد مسيرة ساعة من مكان توقفنا.

تقع البئر في أسفل طريق متعرج ينتهي عند سفح احد الجبال حيث وجدنا قليلا من الماء العذب في بركة تتغذى بأمطار تهطل صيفاً [١].

.. عانيت مشقة عظيمة – خلال اليومين الماضيين – من آلام العين بسبب حرارة الشمس التي تنعكس من الرمال وبفعل ذرات التراب التي تسفها الرياح الشمالية العاتية (السائدة في هذا الوقت من العام): على وجوهنا. ورغم محاولاتي لحماية عيني من الشمس والرياح فقد زاد التهابهما وتضاعف عليَّ الألم.

انتظرنا في جوار البئر حتى الغروب ثم استأنفنا المسير. وفي صبيحة العاشر من الشهر – وقبل ثلاث ساعات من الشروق – توقفنا بأمر رئيس القافلة عند صخرة في سهل رملي. وانتشرنا حول الصخرة – بقدر الإمكان – طلبا للراحة[٢] . فاحتمينا (أنا وخليل أغا) من لهيب الشمس بسجادتي بعد أن رفعناها على أعواد البنادق وثبتنا زواياها بحجارة وضعناها على الصخرة ثم ربطناها بأحزمتنا وشالاتنا.

بقينا هنا إلى منتصف العصر ثم ركبنا جمالنا قاصدين (بئر المرات) في عجلة من أمرنا طلبا لماء يروي ظمأ الجمال الصابرة التي لا غنى لنا عنها

(١) آبار صحراء (أم قران) هي: (أبشيش)، (المرات)، (المدينة)، (أم راشي)، (مقارين)، ولا يوجد في البئرين الأخيرتين ماء إلا في فصل الخريف.

(٢) وجدنا قرب هذه الصخرة جمجمة لرجل تعيس لقى حتفه هنا. كذلك مررنا – في طريقنا – على المئات من جماجم الجمال. ولربما كانت الجمجمة الآدمية التي وجدناها لأحد الجنديين المغربيين الذين فرا من بربر عائدين إلى مصر فماتا عطشا في الصحراء.

لعبور الصحراء [١] . فاجتزنا طريقا اعتراضيا صخريا مستويا لنصل إلى البئر قبل منتصف الليل بساعتين.

تقع البئر بين سلسلتين عاليتين من جبال الجرانيت السوداء. وماؤها – إلى حد ما – مر كما يدل عليه اسمها. ولا يشرب المسافرون من هذه البئر إلا مضطرين وذلك حين ينفد ماؤهم، إلا أن الجمال والبدو المقيمين في قريتي: (أبو همك) و(دولياب) لا يجدون مناصاً من شربه. . إن هؤلاء الناس المساكين القنوعين، يعتمدون في طعامهم على لبن الإبل إذ لا بديل لهم سواه إلا قليلاً مما يطعم. وعلى كل حال فهم مستقلون وبعيدون عن مناطق الاضطهاد الذي تعاني منه معظم شعوب الشرق [٢].

رأينا على الصخور المجاورة للبئر رسوماً هيروغلوفية بدائية لثيران وخيول وجمال منحوتة على الجرانيت تشبه ما يرى على الصخور القريبة من (أسوان) على الجانب الجنوبي من الشلال. وأخبرنا الدليل أن رسوماً مشابه توجد على صخور كثير من جبال الصحراء. وبينما كنت أتكئ على صخرة من تلك الصخور، متعباً وجائعاً ولا أكاد أرى من فرط الإرهاق، اقترب مني بدوي مضياف – من أهالي إحدى القريتين – وناولني بكل لطف قصعة من لبن الإبل. فشربت منها بشره ما لبثت بعده أن استعدت

---

(١) لم يسمح دليلنا الذي ينتسب لقبيلة العبابدة بأنت تسقى الإبل من بئر (أبشيش) حتى لا ينفد ماؤها وبذلك يموت عطشا من يقصدها بعدنا.

(٢) تنتشر على الأرض المجاورة لبئر (المرات) جحور العقارب. وقد نشرت سجادتي ليلا ونمت نوما عميقا، وعندما رفعتها صباحا وجدت تحتها عقرباً طولها أربعة بوصات ولونها يختلط فيه اللون الأخضر باللون الأصفر. وعلمت أن العقارب تعيش قرب كل الآبار الصحراوية ورأيت الكثير منها في مناطق مختلفة على شواطئ النهر. ولي علم بموت ثلاثة مصريين بلدغات العقارب أثناء فصل الصيف.

نشاطي تواً. كان لون اللبن وقوامه وطعمه مثل القشدة الغنية. وأحسب أن ذلك البدوي كان يتمتع بقدر من قيم الشرف والكرم وحب الضيافة، يفتقد إليه كثير من الناس المتمدينين. . أولئك الذين يلبسون جوارب الحرير وينادي بعضهم بعضاً بـ: (السيد).

أثناء إقامتنا في (المرات)، نشب عراك حاد بين أعراب قافلتنا حول مال سرق من أحدهم، ودافع الرجل المتهم بالسرقة عن نفسه بقسم مغلظ نافياً عن نفسه التهمة لكن الأدلة ضده كانت دامغة. فقلت للرجل المسروق إنني سأرفع الأمر - عند وصولنا أسوان - إلى (الكاشف) [1] الذي سيحقق في الموضوع ويعاقب السارق، ما لم يسترد المال قبل الوصول.

فكانت نتيجة هذا الوعيد أن الرجل المسروق - في الصباح التالي - فوجئ بماله ملقى بين الأمتعة - بطريقة سرية - في نفس المكان الذي سرق فيه.

حملنا معنا من سنار ستة تماسيح وليدة في قرعة كبيرة ملأناها بماء النيل. وقد ظلت هذه التماسيح تعيش بحيوية وصحة إلى أن اضطررنا إلى ملئ القرعة من ماء (المرات) المالح فماتت جميعاً. لقد رأيت هذه التماسيح الصغيرة تخرج من بيضها، في سنار، وبالرغم من أن بيضة التمساح لا تزيد عن حجم بيضة الاوزة، إلا أنني عجبت من خروج حيوان يتراوح طوله من سبع إلى تسع بوصات من بيضة بذلك الحجم.

فارقنا بئر (المرات) عند غروب شمس اليوم الثالث عشر من الشهر، وبعد مسيرة متعرجة بين الجبال لمدة خمس ساعات، نزلنا بواد عريض

(١) هو حاكم المقاطعة.

محاط بجبال شاهقة ومظلل بأشجار الدوم. لقد افتقدنا مثل هذا المنظر منذ أن ابتعدنا عن النهر.

يسمى هذا الوادي: (المدينة) وهو يضم قرية بدوية يعيش سكانها على خدمة القوافل حيث يبيعون الأغنام (التي يملكون منها الكثير) والماء الذي يجلبونه من برك تمتلئ في موسم الأمطار.

قضينا ما تبقى من الليل تحت أشجار الدوم وفي الصباح استمتعنا بماء (المدينة) الصافي الصحي الذي كان - بالنسبة لي - نعمة بعد أن كنت مجبراً على تجرع الماء المعتكر الذي جلبناه من النيل أو ماء بئر (أبشيش) الحار الذي تغيرت رائحته من أثر القطران الذي دبغت به القرب.

إشتريت عنزاً ولبناً وأقمنا وليمة كانت شهية حقاً إذ أننا كنا جوعى و لم نكن نقتات - خلال الأيام الماضية- إلا بمقادير بائسة من الخبز اليابس.

بقينا في هذا المكان حتى عصر اليوم التالي، لتنال الجمال الهيم حظها من الماء والراحة. ثم واصلنا المسير في اتجاه النهر الذي علمنا أنه على بعد مسيرة ثلاثة أيام من (المدينة).

أثناء توقفنا في (المدينة) أصيب رفيقي (خليل أغا) بمرض شديد يصحبه قيئ وإسهال حاد بسبب تعاطيه ماء (المرات). وبالرغم من أنني كنت قد حذرته من ماء تلك البئر، إلا أن تحذيري له ذهب أدراج الرياح، وظل يعاني من الألم - بسبب عناده - لعدة أيام.

وفي عصر اليوم الخامس عشر من الشهر، استأنفنا المسير تجاه النهر

عبر سهل صحراوي رملي تناثرت فيه جبال وتلال من الجرانيت، مثلما شاهدنا خلال اليومين الماضيين. وواصلنا سيرنا إلى ما بعد منتصف الليل بثلاث ساعات، ثم استرحنا حتى الصباح. واستأنفنا المسير إلى ما قبل الظهر بساعتين حيث توقفنا عند صخرة ذات ثقوب احتمينا بظلها من لهيب الشمس وأكلنا – بشهية – خبزاً خشنا من الذرة محمصاً على نار البعر الذي كان وقودنا الأوحد.

وعند منتصف العصر واصلنا الرحلة عبر أودية عميقة متعرجة انتصبت فيها ثلاثة جبال من الحجر الجيري، دلت على اقترابنا من النهر. ثم اجتزنا كثباناً رملية تبنيها الرياح حين تسف على تلك الأودية. فمنذ أن غادرنا (المرات) لم نعد نرى جبال الجرانيت إلا نادراً بينما بدأ سطح الأرض آخذا في الارتفاع. ولا شك عندي أن سطح الصحراء كان أدنى انخفاضاً من مستوى قاع النهر.

خارت قوى الكثير من الجمال أثناء سيرنا عبر الجبال (من بينها الجمل الذي ركب عليه عبدي الأسود[1]). وبعد مسيرة أربع ساعات من شروق الشمس، نزلنا بواد تتخلله أعشاب صحراوية هنا وهناك، لنمكن الجمال – التي لم تذق علفاً منذ مغادرتنا (المدينة) – من المرعى.

كان علينا أن نبحث عن مأوى – بين الصخور – يقينا حرارة الشمس، واجتهد كل واحد منافي نيل قسط من النوم بعد أن تناولنا شيئاً من خبز الذرة وجرعات من الماء الحار. هنا أود أن أذكر أننا التقينا بقافلة قادمة

(١) لم يصل إلى النهر سوى إثنا عشر جملًا من الجمال الاثنين والعشرين التي استهللنا بها الرحلة.

من أسوان– في الليلة الفائتة – طلبنا من أفرادها أن يبيعونا ما نقتات به: (بلحاً، ودقيقاً نخبزه) غير أننا لم نجد عندهم ما يقدرون على الاستغناء عنه من طعام.

بقينا عند الصخرة المذكورة حتى منتصف العصر. وعندما صحونا من نومنا، أبصرت اثنين من البدو الذين – رافقوا القافلة – في شغل شاغل مع الدليل، يزينانه ثم يسكبان على رأسه – بعد أن زيّناه – إناء من شحم مذاب. وعندما استفسرت عن مغزى ما يجري، أجاب البدويان أننا سنصبح عند شاطئ النهر ،إن دليلنا يتجمل للقاء أصدقائه. وكان يبدو على الدليل الارتياح التام من مهارة البدويين في تزيينه. وفي الحقيقة فقد بدأ لي أن الرجل – صراحة– شديد الوسامة. وبعد أن أكمل الدليل زينته، اعتلى جمله وتصدر القافلة ثم استأنفنا المسير. سرينا الليل – كله – بلا توقف فرضه علينا نقص الماء [1] الذي كان في حوزتنا. وكان الأمر صعباً على أولئك الأشقياء الذين رافقوا القافلة سيراً على الأقدام بزاد قليل وماء أقل جعلهم – الآن – صورة مجسمة للرهق البدني والجوع والعطش. فبين ساعة وأخرى يسقط على الرمال واحد منهم أو أكثر في مشهد يحكي: اليأس والقنوط وانقطاع الرجاء. ولم تفلح التأكيدات المتكررة لهم بقرب الفرج، في استنهاض هممهم مما حتم استخدام السوط لإجبارهم على النهوض ومواصلة المسير [2]. . كنا نتوقع – بين دقيقة وأخرى– سقوط

---

(١) كان هذا بسبب حرارة الشمس وجفاف طقس الصحراء. وقد أدى ذلك إلى تبخر خمس كمية الماء التي حملناها.

(٢) رافقنا – قبل أن ندخل الصحراء – العديد من الأهالي هروبا من الجيش قاصدين الديار المصرية.

رواحلنا، فكان لابد من الاحتفاظ بكل قطرة ما، لأنها كانت هي الحياة بعينها.

رافق القافلة - قبل أن تدخل الصحراء - صبي تعيس أخذ يستعطفني لأمنحه ماء يبلل به حلقه. فاقتسمت معه - مرتين - سلطانية ملأى بالماء: (باسم الله حافظ الجائلين والمسافرين).

واختفى هذا الصبي - أثناء تلك الليلة المكدودة - ضمن أولئك الذين تخلفوا عن الركب إنهاكاً وعطشاً. ولسوء الحظ فإننا لم نفتقده إلا بعد أن سبق السيف العزل [1]. وقبيل ساعتين من انبلاج الصباح، وصلنا إلى مدخل واد ضيق، عميق، شديد الانحدار تحف به جبال صخرية، عبرناها في ست ساعات. كان هذا الوادي كثير المنعرجات، وتعترض مجراه صخور جرفتها المياه. وقد تعجبت لوجود هذه الصخور عند مدخل الوادي من جهة الصحراء، إذ أن السيول التي دفعت بتلك الصخور إلى المجرى لا يمكن أن تصدر من تلك الجهة. لكنني عرفت السبب عندما لاحظت أن نقطة انقطاع مجرى الوادي تنتهي على مقربة من النهر. فلابد أن فرعاً قديماً من النهر - هو الآن مترع بالمياه - قد زحف إلى هذا الوادي حاملاً معه - أثناء الفيضان- صخوراً تساقطت من الجبال المجاورة.

وقبيل ساعتين من حلول ظهر الثامن عشر من ذي القعدة، وعند خروجنا من باطن الوادي، برز لنا شاطئ النهر الرائع المبارك. . واهب

(١) لم يفلح سوط رئيس القافلة في إنهاض احد هؤلاء الأشقياء فانتزع منه حافظة نقوده (التي كان يربطها على صدره) مقسما انه سيرثه إذا اختار الشقي الموت في تلك الصحراء. وكان لهذا الإنذار أثره إذ أن الرجل نهض وبدأ يمشي بنشاط وهمة. وقد ظل رئيس القافلة يحتفظ بحافظة النقود إلى أن بلغنا النهر.

الحياة لأفريقيا الشمالية الشرقية.

وبكل مشاعر الحمد والثناء لله رب العالمين. ألقيت بنفسي تحت ظلال النخيل - عند حافة الشاطئ - لترطيب عينيَّ المتورمتين الملتهبتين التَيْن تضاعف عليهما الألم بفعل الإرهاق والسهر وحرارة الشمس الحراقة.

حال وصولنا إلى قرية (سيبو) (١) - الواقعة على رافد النهر الممتد إلى الوادي المذكور آنفاً - طلبنا (أنا وخليل أغا) من أهالي القرية ابتعاث من يجئ بالصبي التعيس، المفقود.

وقد أعلمتهم أن الأمر لا يتعدى الركوب على ظهر بعير لمدة ساعتين حتى يصل إلى المكان الذي اختفى عنده الصبي. وناشدتهم باسم الإنسانية والواجب تجاه الله والبشرية أن يقوما بهذه المهمة. وعندما لم يعيروني أذناً، قدمت لهم مالا بينما تنازل لهم (خليل أغا) عن بندقيته. غير أن ذلك لم يكن ذا جدوى (٢). وللتأثير عليهم، أخبرناهم أن المسيحي - في مثل هذه الحالة - لا يتردد من إرسال أربعين رجلا (لا رجل واحد)(٣) إذا كانت الضرورة تقتضي إرسالهم لإنفاذ رفيق يتهدده الموت عطشاً في صحراء قاحلة. وحذرناهم مما يلحق بهم من ذنب إذا تأخروا عن إنقاذه. وأخيراً وعد شيخ القرية بإرسال من يركب جملاً إلى هناك في صبيحة الغد. ولعله

---

(١) رأيته لآخر مرة حين قدمت له آخر ما عندي من ماء. فقبل قدمي باكيا وقال لي: لم أجد في القافلة من يرحمني سواك. فقلت له: كنت جلداً فإننا - إن شاء الله - بالغوا النهر صبيحة الغد.

(٢) تبعد (سيبو: Seboo) من (أسوان) مسيرة أربعة أيام بالجمال، ويواجهها - على الضفة الأخرى للنهر - معبد مصري قديم.

(٣) علمت - فيما بعد - أن رفضهم كان بسبب يقينهم بموت الصبي سلفاً مما لا يمكنهم من إحراز الجائزة التي وعدناهم بها. ولـ (بيركهاردت) مقولة هي: (إن أهالي سيبو معروفون لدى جيرانهم بافتقارهم إلى حسن الضيافة).

قد أطلق وعده من أجل أن يتقي إلحاحي، لأنه لم يف بذلك الوعد أصلاً.

وفي اليوم التالي لوصولي للنهر، غمست قدميَّ ونعليَّ في مائة ثم لعنت - من سويداء فؤادي - قرية (سيبو)، قبل أن أقلع في مركب - كانت في طريقها من دنقلا إلى مصر - لأصل إلى أسوان (على الشلال الأول) وهي أقصى مدن مصر الزاهرة، جنوباً.



كتاب الخرطوم الجديدة

رقم الإيداع: (٤٨٣-٢٠٠٨م)

جورج ب. إنجليش

تعريف المؤلف:

- رحالة أمريكي ولد في كمبردج – ماساشوستز في ٧ مارس ١٧٨٧م وتوفي في واشنطن دي، سي في ٢٠ سبتمبر ١٨٢٨م.
- تخرج في جامعة هارفارد عام ١٨٠٧م ثم درس القانون ولكنه لم يتخذه مهنة.
- وجه اهتماماته إلى علم اللاهوت أثناء دراسته للعبرية في كمبردج، وانتقد الديانة المسيحية في كتاب أسماه (المسيحية على أرض الواقع) صدر في بوسطن عام ١٨١٣م، وقد رد عليه إدوارد إفريت مفنداً آراءه في عام ١٨١٤م، لكن إنجلش عاد إلى الموضوع وكتب مؤلفه (استخراج الحصى من عمق الغدير)، مما أدى على طرده من كنيسة المسيح في نفس العام.
- أصدر صحيفة لبعض الوقت ثم أبحر إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط ملازماً في البحرية الأمريكية، وعندما وصل إلى مصر استقال من البحرية والتحق بحملة إسماعيل باشا على سنار عام ١٨٢٠م ومنح رتبة ضابط مدفعية وهناك لغط حول أنه قد اعتنق الإسلام واتخذ لنفسه اسم: (محمد أفندي).
- وقد رجح عدد من المؤرخين أن التحاقه بخدمة مصر كان لأغراض تجسسية.

A
NARRATIVE
OF THE
EXPEDITION
TO
DONGOLA AND SENNAAR,
UNDER THE
COMMAND OF HIS EXCELLENCE ISMAEL PASHA,
UNDERTAKEN BY ORDER OF
HIS HIGHNESS MEHEMMED ALI PASHA,
VICEROY OF EGYPT.
BY
AN AMERICAN IN THE SERVICE OF THE VICEROY.
LONDON:
JOHN MURRAY, ALBEMARLE STREET.
1822.

تعريف المترجم

- عبد الله حميدة الأمين.
- بكالوريوس آداب جامعة الخرطوم.
- صحفي وكاتب ومترجم.
- أنشأ وأدار عدداً من المؤسسات الإعلامية.
- نائب برلماني عن كتلة الإداريين.
- باحث بمركز الدراسات الاستراتيجية.
- ترجم كتاب (هجرة النوبيين) عن الانجليزية.
- ترجم كتاب (تاريخ الثقافة الاسلامية ١٩٢٨م).
- ترجم وثيقة (مؤتمر الرجاف للغات).
- خبير في العمل الشبابي والطوعي والإنساني وإدارة المؤتمرات والمعارض.
- رئيس اللجنة الاستشارية للنشر بهيئة الخرطوم للصحافة والنشر.

ردمك 978-99942-0-431-1

هيئة الخرطوم للصحافة والنشر
السودان - الخرطوم - حي الصفا - شمال تقاطع أوماك
www.newkhartoumsd.com